زهر الرمان

عبد الحكيم الوائلي

رواية

813 / 92
و الوائلي، عبد الحكيم
زهر الرمان / عبد الحكيم الوائلي
بغداد : منشورات اتحاد الأدباء، 2021.
182ص ؛ 14×21 سم
-الروايات العربية / العراق
م.و.
/ 2021

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

الطبعة الأولى 2021
رقم الايداع ( ) في دار الكتب والوثائق ببغداد لسنة 2021
ISBN: 978-9922-666-34-1

اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق - بغداد

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو اعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher. This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

التصميم: نصير لازم
لوحة الغلاف للرسام الروسي أوليج زيفيتين

احتفاءً بالرموز الثقافية والأدبية اختار
الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق
القاص والروائي **محمد خضير**
وسـمـاً لمنشوراته عـام 2021

عبد الحكيم الوائلي

زهر الرمان

رواية

2021

إهداء

إلى

الروائي الخالد فيودور دوستويفسكي

في الذكرى المئوية الثانية لميلادك 1821-2021

كل عام وأنت تدهشنا

كل عام وأنت بخير

اقتباس...

"من قال أن الجحيم في عالمٍ آخر؟ أبداً ! إنها تمورُ فينا."

بطل رواية زهر الرمان

ملاحظة:

جميع شخصيات هذه الرواية من نسج الخيال، وأي تشابه مع شخصية حقيقية لا يعزى لغير الصدفة المحضة .

المؤلف

الفصل الأول

النادل

منذ أن رأيته أول مرة قبل أربعة أعوام، في أمسية من صيف عام ١٩٧٣، وقد كان وافداً الى بغداد من القوش، وهي بلدة مسيحية صغيرة تقع في أقصى شمال سهل نينوى، ليعمل نادلاً في هذه الحانة الصغيرة، منذ ذلك الحين، وهو يعاملني بما يشبه الطقوس التي لا يحيد عنها أبداً... يخف اليَّ حين أدخل، مساء كل خميس، متهللاً مبتسماً، يرفع الكرسي الذي أجده دائماً متكئاً على طرف الطاولة، في إشارة الى أنه محجوز، لمنع الاخرين من الجلوس عليه، ينصبه قبالة الواجهة الزجاجية للحانة كما أفضل أن يكون ، يتناول عكازتي ويعلقها على الكرسي الاخر أمامي حتى لا يشاركني أحد المكان ، يسحب لي الكرسي ..

- تفضل سيدنا .

أبتسم له بصمت كعادتي وأجلس ، فيردف ..

- الله بالخير سيدنا .
- الله بالخير.

ينطلق مسرعاً ليعود بزجاجة بيرة باردة ، ينزع غطاءها بحركة صاخبة ، يسكب لي كأساً تعلوه الرغوة البيضاء التي أحب، يظل منتظراً يفرك كفيه حتى أرفعها حينئذٍ ينطلق مجدداً ليعود بآنية اللبلبي(*) تعلوها فقاعات الزيت بالخل وينتظر حتى أتذوق ماءها وأهز له رأسي علامة الرضا، حينئذٍ فقط يمكنه أن يذهب مطمئناً الى أن كل شيء على ما يرام، وكان قبل أن يعرف تفضيلاتي يحرص على أن يسألني إن كنت أرغب بتبديل الاغنية في جهاز التسجيل، رغم وجود لافتة صغيرة ملصقة على الجهات الاربع تقول (ممنوع طلب الاغاني)، لكنه بعد أن عرف ما أريد وما لا أريد لم يعد يسألني بل كانت الاغنية تتبدل حالما يستقر بي المقام. وبعد أن يجري ذلك كله بأقل قدر من الكلمات، فهو لحسن الحظ مثلي قليل الكلام، يشرع بتلبية طلبات الاخرين التي كان يؤجلها بإشارة من إصبعه طوال انشغاله بي، ويظل، وهو يلبي طلبات زبائنه، يرمقني بطرف عينه تحسباً لأية إشارة تبدر مني، فإذا رفعت سبابتي دون أن التفت، كانت الزجاجة الثانية أمامي خلال ثوانٍ، كما لو أنه لا يرى أحداً سواي، ويحدث مع الثالثة والاخيرة الشيء نفسه، حتى إذا شملت الطاولة بدائرة من سبابتي، تسمر أمامي منحنياً بكل أدب ليأخذ الحساب والبقشيش شاكراً، ثم يناولني عكازتي ويسحب لي الكرسي لأنهض، يفتح لي الباب ويشيعني

(*) اللبلبي باللهجة العراقية هو الحمص المسلوق.

بنظرة لا أحسب أن الابناء يحسنون أن يشيعوا آباءهم بأروع منها، مردداً..

- في أمان الله سيدنا.. مع ألف سلامة.. نراك الخميس المقبل بخير إن شاء الله.

كل هذا وأنا لا أرد ، بل لا أعرف أن أرد. يا للعادة السيئة التي لازمتني طول العمر، وطالما فسرها الاخرون تكبراً وغروراً، فزادت من عزلتي، بحيث غدا هذا الشاب الكائن الوحيد الذي يتقبلها مني ويذكرني بالوجود من حولي .

ومثلما تتخذ العادات عند سميي يوسف شكل الطقوس فهي تنحو عندي نفس المنحى، إذ أنني لم أتخلف أمسية خميس واحدة عن ارتياد حانة حسون أفندي في شارع السعدون، بذات الزمان والمكان والتفضيلات وثالوث البيرة الذي لا ينتهك، بما يشبه العادات التسلطية التي لا سبيل للخلاص منها.

لقد بدا يوسف أول الأمر مثل شاب قروي غشيم، لكنه سرعان ما ألم بأسرار معاملة الزبائن، بيد أنه ويا للعجب خصني بتلك المعاملة العفوية المميزة، التي كنت عاجزاً عن معرفة سببها، وقد عمدت مرة الى قطع البقشيش عنه لمدة شهر تقريباً، لكن ذلك لم يغيره قيد شعره. وقد سمع مرة أحدهم يخاطبني بلقب سيدنا فعلقت بلسانه، ولكم طلبت منه أن يكف عنها فكان ينسى، فتركته على سجيته.

لكنني لم أره اليوم، أين يوسف؟ ما الذي حدث يا ترى؟ لأول مرة وجدت كرسيي الذي اعتدت عليه مشغولاً، فاخترت مكاناً آخر على مضض. أذكر أنه أخبرني مرة أنه يذهب لزيارة أمه في القوش مرة كل شهر، لكنه قال أنه يختار عادة بداية الاسبوع لأنها أقل انشغالاً من نهايته، وربما أراد بذلك أن يطمئنني الى أنه سيكون موجوداً عند قدومي ، فما الذي جرى ليذهب هذا الخميس، سألت رب عمله حين حضر لخدمتي، فرد بأسى..

– للأسف أستاذ ،كان يجب أن يصل أمس لكنه تعرض لحادث في طريق العودة، وعلمت أنه الان في المستشفى بالموصل، الله يستر.

وانتقل الأسى الي أيضاً فتعكر مزاجي ولم أعد أرغب بالبقاء، دفعت ثمن الزجاجة الوحيدة التي شربتها وخرجت، مشيت بضع خطوات بشرود قبل أن أعود أدراجي وأدلف الى الحانة وأتوجه صوب البار مباشرة، حيث كان السيد ميخا صاحب الحانة واقفاً وقلت متلعثماً فقد نسيت كنيته..

- أبا...
- عصام.
- أبا عصام! هل يمكن .. رجاءاً .. أن تكتب لي .. رقم هاتفك .. فقد أتصل لأطمئن على يوسف.
- بكل سرور.

تناول ورقة صغيرة، كتب عليها الرقم ودفعها لي قائلاً..

- سيد يوسف هذا هاتف المنزل، يمكنك أن تتصل بأي وقت، وإن لم أكن موجوداً فالعائلة يعرفون عنه ما أعرف لأنه قريب أم عصام .

بالكاد استطعت أن أقول شكراً وخرجت على الفور، وكان نسيم الربيع في الخارج منعشاً بيد أنني كنت منقبض الصدر، وتملكني الاكتئاب الموروث فانعطفت الى اليمين متجهاً الى شارع(أبونؤاس) عسى أن أسري عن نفسي بمنظر النهر ليلاً، جلست هناك الى وقت متأخر من الليل، فكرت بهذا الشاب الفقير الذي يعيل والدته المريضة كما روى لي ذات مرة، ويطارد لقمة العيش الى آخر الدنيا فلا يكاد يظفر بها حتى تتبدد من بين يديه.. آه يا إلهي ماذا لو صار مقعداً.. وعزمت على فعل شيء ما ثم شعرت بأهمية الاتصال الان، فعدت الى البيت على عجل.

الفصل الثاني

أشباح الطريق

رن جرس الهاتف في بيت أبي عصام، وحانت مني التفاتة الى الساعة الجدارية فإذا هي تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل، لقد سرقني الوقت دون أن أنتبه وأوشكت أن أغلق الخط ولكن الرد كان أسرع مني..

- ألو.. نعم .
- آسف، لم أنتبه لتأخر الوقت.
- الاستاذ؟ لاعليك! كنت صاحياً (ثم اختنق بكلماته وهو يقول) البقية بحياتك.

صدمني الخبر فلم أحر جواباً غير أني سألته بعد تردد إن كان ينوي السفر الى القوش غداً فقال أنه سيأخذ العائلة كلها بعد غدٍ لحضور قداس الاحد، فقلت ..

- أنا أريد أن أسافر غداً، ولا أدري كيف سأصل؟

- ستدلك لافتات الطريق حتى تصل المدينة حيث يقع منزلهم في شمالها قرب كنيسة مار كوركيس .. والناس هناك يعرف بعضهم بعضاً.
- حسناً! سأذهب عند الفجر إذن، تصبحون على خير.
- وأنت من أهل الخير.

رحت أطوف في البيت لا أدري كيف سيتسنى لي أن أنام الساعات القليلة الباقية لأتمكن من قيادة السيارة غداً، فتحت الثلاجة فوجدت نصف زجاجة نبيذ أحمر، وضعتها على فمي وأتيت عليها، ثم استرخيت في السرير حتى غفوت.

كانت المارسيدس تنهب الطريق لا يسمع منها غير وحيف العجلات الرتيب على الاسفلت قبل أن يقطعه صوت يوسف..

- الله بالخير سيدنا!

رأيت وجهه في المرآة يقطر دماً فجفلت وتفصد من جبهتي عرق بارد، أدركت حينئذٍ أنني كنت في تهويمة نوم. ركنت السيارة على جانب الطريق وأخرجت من الصندوق زجاجة ماء نضحت وجهي بالقليل منها، ثم انطلقت مجدداً، أتأمل من حين لآخر العلامة الفضية المستديرة يشع منها ثالوث البر والبحر والجو، منتصبة وسط مقدمة السيارة السوداء الفخمة، إنها من أكثر الاشياء التي أعشقها في المارسيدس الى جانب اللون العاجي لمقودها ومقاعدها الجلدية الوثيرة وصوت اصطفاق ابوابها وانطلاق محركها. لكم هي مفعمة بالذكريات هذه

السيارة حتى لقد بت أعدها كائناً حياً يشعر بي ويشاركني حياتي رغم أنني لا أستعملها الا نادراً مقتدياً بسيرة أبي معها، فقد كنت أعتني بها وأنظفها بيدي كما كان يفعل أيضاً، منذ أن اشتراها من شركة عبوش عام١٩٥١، ولم يكن يدع سائقه أبا كريم يلمسها، كما لم يكن يسمح لي بقيادتها الا لماماً. وكان هو لا يستقلها الا في المناسبات الخاصة أو الرحلات العائلية الى مصايف كردستان في السليمانية وأربيل. ولذلك فهي رغم أن عمرها٦ ٢عاماً ماتزال جديدة كما لو انها انتجت هذا العام.

وصلت مشارف سامراء حين بدأت السماء تنث فملت عن الطريق الى استراحة حيث تناولت فطوري وشربت استكاني(*) شاي لأضمن أن لا أنعس ثانية، وبالكاد استطعت أن أقاوم رغبة عارمة بالتدخين الذي أقلعت عنه مؤخراً ومازال يراودني كلما شربت الشاي، فسارعت الى الفرار من غوايته وانطلقت. كان المطر قد توقف، بيد أن السماء ماتزال ملبدة بغيوم قاتمة، عندما أشار لي زوجان عجوزان على جانب الطريق، فآثرت أن أقلهما قبل أن يشتد عليهما المطر، جلس الرجل الى جانبي يلهج بآيات الشكر، وصفقت امرأته خلفها الباب، وسرعان ما أختنق الجو برائحة الدهن الحر(*) التي

(*)الإستكان هو كأس صغير خاص لشرب الشاي .

(*) التسمية العراقية للسمن الحيواني أو السمن البلدي.

لا أطيقها فانقلبت معدتي رأساً على عقب، وعبثاً حاولت التخلص منها بفتح النافذة الى أقصاها، ثم تملكني الغثيان وبالكاد تمكنت أن أتوقف وأخرج من السيارة لأفرغ ما في جوفي، ترجل العجوز المسكين محرجاً وحاول أن يفعل شيئاً فانتزع زجاجة الماء مني وراح يسكب على يدي وهو يتمتم بكلام مبهم، شكرته وأعدت الزجاجة الى صندوق السيارة ثم وقفت اتنسم الهواء البارد قليلاً، قبل أن آخذ مكاني خلف المقود لأنطلق مجدداً، حين ربتت المرأة على كتفي فالتفت لها وهي تفك صرة صغيرة بطرف شالها وتقول (خذ!خذ!) بسطت لها راحتي فوضعت بها بضع حبات من اللبان المر، ألقيتها في فمي شاكراً ، والحق أنها كانت مفيدة جداً.

واصل المطر هطوله بغزارة هذه المرة، فجدد الرجل شكره..

- ألف شكر لك، إذ ما كان بوسعنا أن نفعل تحت هذا الوابل الغزير لولاك؟
- أنا لم أفعل شيئاً يستحق الشكر يارجل.

فهز رأسه وقد بدا مستاءاً وهو يحدث نفسه قبل أن يلوذ بالصمت ثانية، وحين بلغنا مشارف مدينة تكريت كان المطر قد توقف تقريبا الا من قطرات قليلة تقرع الزجاج من حين لآخر، حينئذٍ أشار الرجل الى شجيرة على كتف جدول ماء قائلاً..

- رحم الله والديك .. لقد وصلنا.

التفت الي وهم أن يدفع فصدته صرامة وجهي التي أعرفها فأحجم وقال وهو يفتح الباب..

- عذرا عن الرائحة المزعجة.. قلت لها أن لا تفعل لكنها أصرت أن تجلب هدية لابنتنا .
- حصل خير ياحاج.. معظم الناس يحبون رائحته إلا أنا.
- أنا أيضاً لا أحبه لكن ليس مثلك.

قال ذلك وهو يترجل ويجدد الشكر، واكتفيت بالابتسام له وأنا أنظر الى عُكَّة(*) الدهن الثمينة المعلقة بكفها المطرزة بالوشم الاخضر وهي تقف بانتظار زوجها. لوحت لهما ثم واصلت طريقي والذكريات تتداعى من عكة الدهن الحر التي كان يجلبها أبي من البصرة ويعدها أثمن هدايا الفلاحين، الى الوشم الذي أرادته أمي من إحداهن ذات يوم فاختبأتا خلف باب مغلق طويلاً، ولم أر ذلك الوشم إلا حين أخرجت من الحمام جثة، وانحسر الثوب عن أعلى فخذها، ومروراً بسفرتي الوحيدة مع الباشا التي أوشكت فيها على الغرق في الشاخة (**) وأنا أقلد أبن الفلاح وهو يقفز في الماء ويعوم مثل فرخ البط، وانتهاءاً بهذا

(*)العُكَّة؛ قربة لحفظ السمن الحيواني تصنع من جلود الحملان الصغيرة

(**) الجمع شاخات، شبكة من السواقي تتخلل بساتين النخيل في البصرة، يعلو ماؤها مع المد فيسقي الزروع، وينحسر مع الجزر فيغسل الارض.

الشلال الذي بات يتدفق على الزجاج الان، وقد عجزت الماسحات عن اللحاق به بحيث لم أعد أرى الطريق بوضوح، وشعرت حينئذٍ كأن السيارة تدور حول نفسها وفي تلك الاثناء انبثق أمامي العجوزان من العدم وبالكاد تمكنت من تجنب دهسهما ، وكادت السيارة أن تنقلب لولا تشبثي بالمقود ومجاراة جنونها حتى توقفت، حدقت بالمرآة فكانا واقفين على مقربة خلف السيارة، رجعت قليلا وأنزلت الزجاج لأحدثهما لكنهما اختفيا، ترجلت وطفت بالمكان كالأبله ، ولا أثر لهما، وحين هممت بالذهاب لمحت العكة على حافة الطريق، تعلوها آثار العجلات، وقد أعتُصر السمن الاصفر منها واختلط بالطين. عدت الى السيارة ذاهلاً عن خطاي، ثم القيت رأسي على حافة المقعد الجلدي البارد واسترخيت قليلا، قبل أن أواصل طريقي، لتطالعني بعد قليل لافتة ترحب بنا في تلكيف وهو القضاء الذي تتبعه ناحية القوش. فهل أنا يا ترى على وشك الوصول حقاً أم أنني ما زلت أهلوس وأطوف في ضواحي بغداد .

الفصل الثالث

السر

توقفت عند أول دكان في ظاهر البلدة وسألت صاحبه عن منزل المرحوم يوسف جميل بطرس، فأشار الرجل الى برج كنيسة حجري أبيض وقال تجده هناك، ودعته شاكراً واتجهت الى حيث اشار، بدت الطرقات تضيق وترتقي تدريجياً كلما توغلت شمالاً وبعد دقائق كنت بالقرب من باب مهيب احتشد عنده رجال ونساء، كانت ملامحهم تشف عن شيءٍ من ملامح يوسف، تمالكت نفسي من البكاء وأنا اقترب من أحدهم وأسأله، فقال..

- لقد انفض العزاء تواً وعادت السيدة ام يوسف الى منزلها غير بعيد عن هنا، إذا شئت أوصلتك اليه.

شكرته وسرت الى جانبه بصمت لا تقطعه الا طرقات العكازة على أحجار الرصيف حتى توقف عند باب حديدي نقشت على مصراعيه الصلبان، طرقه وهتف بالسريانية يعلمها بوجود ضيف من بغداد، ولم أفهم منه بطبيعة الحال غير اسم بغداد، وشعرت أن قلبها خفق، وخفت الى الباب تفتحه لكنها تعثرت عنده وكادت أن تقع لولا

أن تعلقت برتاجه فاهتز قبل أن ينفرج. لاشك أنها لم تعتد قادماً من بغداد غير يوسف، أشرعت الباب عن عينين مغرورقتين بالدمع فلم أتمالك نفسي عن البكاء بصمت، الامر الذي أحسنه أكثر من الكلمات. وتنحت عنا جانبا لندخل عبر الممر المعتم الضيق مرحبة ..

- أهلا وسهلا بك سيد يوسف..

ولكم كانت دهشتي كبيرة إذ كيف عرفتني على الفور، بل حدثتني كأنها تعرفني منذ زمن بعيد وتنتظر قدومي، كنت حائراً وأنا أجول ببصري بجدران الصالة المثقلة بتجاعيد الزمن بين ايقونات ملونة للسيد المسيح والعذراء وأحد القديسين يطعن تنيناً يمثل الشر.. ثم سرعان ما أدهشتني، وبددت دهشتي الاولى صورة كبيرة تتوسط الجدار الاخر يعلوها صليب كبير من الخشب، ويكلل زاويتها شريط أسود، لولم تكن بالزي العسكري لقلت أنها صورتي. ثم سمعتها من المطبخ تقول..

- أرأيت الصورة ياسيد يوسف؟ حين رأيتك أدركت كم كان محقاً وهو يسهب في وصفك والحديث عنك، كان متعلقاً بأبيه أيما تعلق حين فقده مبكراً، ولما تعرف اليك شعر بأنه استعاده. أنت لا تدري يا سيدي كم كان يوسف يحبك، وينتظر رؤيتك كل خميس.

ولم أحر جواباً غير أن فاضت عيناي بدمع غزير، وأنا أردد بصوت مخنوق مبهم..

- لِمَ.. قاسية.. البعض.. هذا الحد؟ لوكنتُ.. لما ..على هذا النحو المفجع يا...

وسألتني عن ما قلته تواً وهي تناولني استكان الشاي فقلت:

- لاشيء سوى أنني تمنيت أن تكون آخر الاحزان.
- وهي كذلك فعلاً..

قالت عبارتها الاخيرة بانكسار عميق بدت معه المواساة التي قلتها بلا معنى، شربت الشاي على عجل ودسست بيدها مئة دينار وقلت موضحاً..

- كان له عندي هذا المبلغ ولأجل سداده أتيت .
- أعلم..

وأختنق صوتها بنشيج مرير، وبالكاد أردفت وهي تنازعني على إعادة المال..

- أعلم جيداً أنه كان يبيت طاوياً ليوفر لي لقمة العيش والدواء فمن أين له أن يقرض أحداً مثلك يا سيدي .
- بل أنني مدين له بأكثر من ذلك..

دسست المال تحت شرشف الأريكة لأضع حدا لاعتراضها واستأذنت بالذهاب، بينما كانت ترشم شارة الصليب وتدعو بالسريانية. وتحدث دليلي لأول مرة معترضاً على ذهابي في هذا الجو الماطر، لكنني تذرعت بكثرة مشاغلي وانطلقت سريعا مع وعدٍ بزيارة أخرى.

كانت الساعة تشير الى الثالثة عصراً حين وصلت الى لافتة الترحيب على مشارف تلكيف وأبطأت قليلاً بحثاً عن أي أثرٍ على حافة الطريق فلم أر غير أرنب ميت لم يبق منه غير جلد على عظم، سئمت من هلاوسي وضغطت على دواسة الوقود وانطلقت لا ألوي على شيء.

الفصل الرابع

طفولة ملتبسة

حين وصلت الى البيت كانت الساعة العاشرة مساءاً وكنت في غاية الإعياء، وبالكاد القيت عني ملابسي على اتساع الغرفة واستسلمت لنوم عميق بلا أحلام حتى أيقظتني ضجة العصافير القادمة من الحديقة وأشعة الشمس الاولى وهي تتسلل عبر النافذة. نهضت وأعددت فنجان قهوتي على عجل، ثم جلست أشربه على مهل مع صوت فيروز. وتذكرت الرؤى والهلاوس التي باتت تتكرر في الآونة الاخيرة على نحو يبعث على القلق، فعزمت على مراجعة عيادة نفسية لأقع على أسباب ما أعاني منه.

ذهبت عصراً الى عيادة الدكتور أبرم يلدا، في ساحة حافظ القاضي، الذي كان أبي يراجعه أواخر أيامه حينما بدأ الاكتئاب يستفحل عليه. إرتقيت سلم البناية الى الطابق الثاني وسجلت اسمي عند سكرتيره الذي أشار إليَّ بالانتظار ريثما يفرغ الطبيب من مريضته الاخيرة، وبعد نحو ربع ساعة خرجت سيدة في العقد الخامس واتجهت صوب السكرتير وأسرت له بكلام فابتسم فيما أطلقت هي ضحكة مجلجلة وهي تطيل النظر الي ملياً فشعرت بالحرج كعادتي وأشحت

بوجهي جانباً، متشاغلاً بالصور المعلقة على الجدران، فانفتلت تمشي بغنج لايناسب عمرها وأخذت طريقها نحو باب السلم مخلفة ورائها عطراً صارخاً وخطوات تقرع الدرجات برتابة وتتلاشى شيئاً فشيئاً، وفي تلك الاثناء دخل السكرتير الى غرفة الطبيب وماعتَّم أن عاد وأشار الي بالدخول.

كان أحد أحسن أطباء الامراض النفسية والعصبية في بغداد كما يصفونه جالساً خلف مكتب من خشب مهاغوني فاخر، أمام خلفية عامرة بالشهادات العلمية تزين الجدار، ودون أن يحرك ساكناً أشار علي بالجلوس، وسألني مَّ أشكو فبسطت له الامر، نهض من وراء مكتبه دون أن يقاطعني، واقتادني الى أريكة جلدية سوداء وثيرة، أشار علي بالاسترخاء عليها وهو يواصل هز رأسه ليشجعني على مواصلة الحديث وسمعتني أقول..

- لاأدري يادكتور متى بدأت تلك الرؤى أول مرة بيد أن مايقلقني الان أنها باتت تتزايد في الآونة الاخيرة، بل أنها بدت تنتابني كل وقت تقريباً، وعلى الاخص كلما شعرت بالنعاس أو أحسست بالخدر من دواء أوماشابه، تصور أنها داهمتني البارحة أثناء قيادة السيارة وكادت أن تسبب لي حادثاً مميتاً.
- هل تؤمن بالجن والاشباح؟
- لا .
- فأنت تدرك أن منشأ رؤاك هو دماغك ،صح؟

- نعم بالتأكيد.
- حسناً، هكذا نكون قد قطعنا نصف المسافة الى الشفاء.
- حقاً يادكتور؟ هل تعني أن الشفاء التام ممكن؟
- بشرط أن نتعاون في البحث بين زوايا الماضي، عبر جلسات اسبوعية إذا شئت نبدأها الان.

فوافقت وبدأ بطرح الاسئلة التقليدية عن السن والعمل والاهتمامات والوضع الاجتماعي والصحي والاقتصادي والعادات والطفولة والعلاقات، ثم حدد يوم الاحد من كل اسبوع من السادسة الى السابعة مساءا موعداً ثابتاً للجلسات، وكان طول الوقت يدون في دفتر ملاحظاته وحين نهضت لمحت العبارة التي كان يضغط القلم حولها في دوائر خلال الدقائق الاخيرة حتى اوشك ان يمزق الورقة فكانت (طفولة ملتبسة).

الفصل الخامس

الوهم

يبدو أن المراجعة الاولى لعيادة الطبيب أحيت في النفس رغبة قديمة كنت قد نسيتها وهي كتابة مذكراتي عن السيرة الخاصة لأسرتي العريقة، فقد كان جدي نقيب الاشراف في البصرة ردحاً من الزمن أبان الاحتلال العثماني للبلاد، وكان ذا صلة وثيقة بالولاة والسلاطين وأن السلطان كان قد خلع عليه لقب باشا ومنحه مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية الخصبة بمحاذاة شط العرب غدت بساتين نخيل غناء أورثها أبي مع كل الجاه والمال والنفوذ الذي لم يحتفظ منه الا بالقليل لسبب أجهله .

جلست في الشرفة أشرب الشاي بعد أن تناولت عشائي. منذ وفاة والدتي واختفاء كاكا كريم(*) الذي كان يتولى كل شؤون البيت الى جانبها قبل عشرين عاماً، لم أشأ، أن أقحم في حياتي خادماً أو خادمة، فاتخذت الطبخ هواية،وتعلمت أن أخدم نفسي بنفسي، ولا أدري كيف

(*) كاكا تعني السيد والاخ باللغة الكردية.

تسنى لسليل الباشوات أن يتعايش مع هذا الاختيار. فكرت بمشروع كتاب السيرة جدياً ووضعت خطة عمل، وعزمت على الوقوف على سر(الطفولة الملتبسة)التي لاحظها الطبيب، بالعودة الى الاوراق والوثائق والصور القديمة المتيسرة في البيت عن ماضي العائلة، والتي تختنق بها الخزانة العتيقة القابعة في العلية بصمت منذ عقود، والتي لم أُلقِ لها بالا من قبل، كما سأستعين بما يجود به تداعي الذكريات على أريكة الاعتراف في عيادة الطبيب، وقررت أن أدون معلومات كل جلسة بعد عودتي من العيادة كل أسبوع، فإن ذلك سيشكل أحد أهم مصادر الكتاب العتيد، وتصورت اللحظة السعيدة لولادته، وحسبت أنه سيشعل الوسط الثقافي والاجتماعي في البلاد ويقيم الدنيا ولا يقعدها، وابتسمت برضاً وأنا أصل الى تلك النقطة المبهجة، وشعرت أن الايام القادمة ستكون مثمرة خلافاً لما أضعت من العمر قبلها في كتابة المقالات القانونية المملة التي لا يقرؤها غير المختصين من محامين أو قضاة، هذا إن قرأوها. ثم أردت أن أكافئ نفسي على هذه الخطة فجلبت كأس نبيذ واسترخيت في الكرسي الهزاز وسرحت في أحلام اليقظة التي كانت كلها تدور حول الشهرة التي سأحظى بها بعد صدور الكتاب، ومن ذا الذي لا يحب الشهرة، فحتى أولئك الانعزاليين من أمثالي يعشقونها، أنه أمر عجيب أن يحب المرء ما يعود عليه بوجع الرأس والتدخل السافر في خصوصياته ممن هب ودب، وانتهاك قدسية

برجه العاجي الذي كان ينعم بدفئه، يبدو أن الخمر هي السبب في تلك التهويمات الاخيرة التي لا تعدو عن كونها لغوا فارغاً.

وبحركة لاإرادية من يدي طردت تلك الافكار وعدت الى الاسترخاء اللذيذ وغرقت في المقعد المريح وقد سهمت عيناي في نصف إغماضة حين لمحت نافذة الكوخ المهجور في الزاوية البعيدة من الحديقة تضاء بنور باهت قبل أن يطل منها كاكاكريم بصدره العاري إلا من الشعر الكث مثل قرد فذهلت عن الكأس فوقع وتحطم بصوت صاخب طرد الشبح وأطفأ النور الباهت.

الفصل السادس

خلف باب ميت

كانت الجلسة الثانية غنية بالذكريات التي راحت تتداعى بسهولة ويسر، بيد أنها ظلت عالقة في السنوات العشر الاخيرة قبل وفاة أبي، لسبب أجهله، وكلما حاولت أن ألج لما قبلها صدني حاجز من العتمة عصي على الاختراق يلف الماضي فأعود خالي الوفاض، وكم حاول الطبيب أن يستدرجني الى تلك الزوايا، بأسئلة حساسة كان يتوقع أنها ستستفزني ولكن عبثاً، لذلك حين عدت الى البيت عزمت على نبش الماضي عسى أن أجد منفذاً الى ذلك العالم .

صعدت الى العلية التي لم يكن يلوذ بها أحد غير أمي، كانت تمكث فيها ساعات أحياناً لا يقتحم عليها خلوتها أحد وها أنا أدخل لأول مرة، منذ آخر مرة نهرتني لأنني تبعتها قبل أكثر من ثلاثين عاماً. مسحت الغبار عن الخزانة الخشبية العتيقة، فلمعت زخارفها البرونزية وحاولت فتحها فلم تستجب، فتشت بالمفاتيح القديمة عما يفتحها دون جدوى فعمدت الى كسر القفل بمطرقة وإزميل. شعرت برهبة اقتحام خصوصية أمي، ترددت كثيراً ورحت أطوف في الغرفة المهجورة أقلب أشيائها المكسوة بالغبار وأنظر الى الخزانة بطرف عيني خشية

مواجهة عينيها، مشرعة على مصراعيها ومنتصبة بتحدٍ كأنها تقول حاول وسترى، ويبدو أنني قبلت التحدي أخيراً فمددت يدي الى أول شيء صادفني وكان إلبوم صور سميك، التقطته وجلست قرب النافذة أقلب صفحاته، يا إلهي لم يدر بخلدي يوماً أن الصور يمكن أن تكون حية على هذا النحو الصادم، منذ الصورة الاولى انطلقت الضحكات تتردد في المكان وسمعت أصوات من ماتوا، سمعت هسيس ثوبها ووقع خطواتها وبحة صوتها المحببة ولثغة الراء الحلوة على لسانها وشممت عطرها ولمست يدها وسمعت خرير الماء حول قدميها العاريتين على الصخور وهي منتصبة كإفروديت ربة الحب والجنس والجمال، ورأيت كغومي، كما كانت تسمي كاكاكريم تصغيراً وتحبباً، يمد يده القردية ليدها العاجية لتجتاز مسيل النبع المتدفق بالموسيقى، ورأيتني أنط على ظهره وأتعلق بكتفيه العريضتين خشية الوقوع، وأشم رائحة عرقه العطنة. سرحت ببصري عبر النافذة فرأيت الكوخ مسحوقاً بمشهد علوي يمد ممره المكسو بأوراق الخريف الصفراء تحت عريشة الكروم العارية وسمعت هسيس الاوراق تحت قدميها وهي تخطو نحو الباب وتتلفت قبل أن تدلف، انتظرت خروجها دهرا، لمست الصورة الخالية منها وهجست تكسر اوراق العنب اليابسة تحت أصابعي، بيد أن الباب وحده كان ميتاً مثل شاهدة قبر توارت خلفه أمي الى الابد، فرت الدموع من عيني وقلبت الصفحة أبحث عنها فلوحت لي من بعيد، هرعت اليها سمعتني ألهث وأتعثر بصخرة ناتئة في العشب فيخف كاكا كريم الي ويمسك

بكفي ويدور فاشعر بأنني أطير ويظل وجهه يضحك ويضحك ويدور حتى أكف عن البكاء وأضحك فيودعني بحضنها، أرفع عيني عن الصور وأجول في أرجاء الغرفة ببصري، ياللعجب ها أنا أعود ثانية الى عالمي الموحش، تعتصرني رغبة عارمة موجعة بأن أظل هناك الى الابد، فهل من سبيل وقد تبدد كل شيء كأن لم يكن، شعرت بالإعياء كما لو أنني عدت من سفر بعيد تواً، أعدت الالبوم الى الخزانة وهبطت الى السرير بسرعة ونمت كالاطفال .

الفصل السابع

عقدة مستعصية

كـرَّت الاسـابيع ومـرت معهـا جلسـاتُ الآحـاد، وتـداعت معهـا الذكريات مثل قطع الدومنو يسقط بعضها بعضاً، لكنها ظلت بالنسبة لي تقف عند إحداها التي بدت مثل كتلة كونكريتية صماء لاتتزحزح حتى كدت أن أستسلم لعنادها وأكف عن المحاولات.

- قلتَ أنك تعقبتها ببصرك خلسة الى الباب، حسناً ، وماذا بعد ؟

حاول الطبيب أن يستدرجني لأواصل، وسمعتني أرد..

- أنا لم أقل ذلك.
- طيب ، من كان في الحديقة آنذاك ؟
- أبي.
- لكنك قلتَ أنه كان مسافراً الى البصرة.

لا أدري لم شعرت أنه بات يضايقني، بل بدا لي كأنه يريد أن يسلبني شيئاً ما، فصرختُ به..

- أهو تحقيق؟ أنا لم أقل كان في البصرة بل قلت أن السائق وابنه كانا مسافرين الى البصرة، أما هو فقد كان يبحث عني في

الكوخ، ولسوف تسألني لماذا ؟ حسناً، لماذا؟أها لقد تذكرت الان، نعم نعم، كنا نلعب الغميضة.

- حسناً أكمل..
- لاشيء بعد.. لاشيء .. لقد كان الكوخ مظلماً حين دخل فلم يرني .
- نعم..
- قلت لك أنه لم يرني، يعني أنني فزت عليه، هكذا انتهى الامر ساعتئذٍ. أتعلم ؟ أنا أكره تلك الصورة الميتة لباب الكوخ، من التقطها من نافذة العلية يا ترى؟ ولمَ التقطها، إذ لا أحد فيها غير باب مغلق، ها؟ أللباب وحده التقطها،أم لشجرة العنب العارية،أم لملابسها الممزقة الى قطع صفراء جافة تفترش الممر؟ لاشك، أنت تقرأ لفرويد، صح؟ طبعاً فهو سيدكم الذي علمكم السحر. إنه مجرد معتوه ومعقد، أليس هو أحوج مني للتحليل النفسي، مارأيك؟
- بالصورة الميتة؟
- قلت لك أنني أكرهها أكرهها، وأكره فرويد، وأكره كل الاطباء النفسيين المخبولين، وأكرهك أنت أيضاً.

سكب لي كأس ماء بارد وقال..

- إشرب! إشرب!

تناولت من يده الكأس واستويت جالساً على الأريكة الطويلة وشربته شاكراً، وانا أتذكر بخجل آخر كلماتي التي سمعتني أقولها بلا إرادة . ثم قلت..

- هل يمكن أن أذهب الان؟
- براحتك، بوسعك أن تذهب ساعة تشاء.
- حسناً، ولكن قل لي يا دكتور، هل كنت تعرف أبي جيداً؟
- بالقدر الذي يعرفه الطبيب عن مريضه.
- ممَ كان يشكو بالضبط؟

تردد كثيراً قبل أن يرد متذرعاً بحجة مقنعة وهي أنه مستأمن على أسرار مرضاه بيد أنني أقنعته في نهاية المطاف كوني ابنه الوحيد وأنه الان متوفي وأنا أعاني من علل نفسية وقد تساعدني تجربته في الشفاء منها، فذكر لي أنه كان يشكو من الاكتئاب، كما أنه كان دائماً محبطاً من عجزه الجنسي الذي لم يكن له سبب عضوي، فقاطعته قائلاً..

- أنا أعاني من الاكتئاب، ولكنني لا أشكو من هذا العجز.
- وكيف عرفت فأنت لم تتزوج بعد، وبالمناسبة لمَ لم تتزوج ؟
- لا أدري ولكنني حين أفكر بالأمر أعزوه الى أنني بلا قريبات، أما في الكلية فقد كنت دائماً خجولا منعزلاً، فلذلك لم أمر بتجربة عاطفية أو جنسية .
- أو أنك لا تذكرها .

لا أدري لم شعرت ساعتئذٍ أنه كان يخفي عني أمراً، وخشيت من توتر الجو بيننا مجدداً فاستأذنت في الذهاب، وتركني أفر، وحين التفت عند الباب رأيته ما زال واقفاً يحدق بي بنظرة عميقة مع طيف ابتسامة غامضة، حينئذٍ أدركت أنه يعرف أكثر مما أفصح عنه ، وبدا أنه عرف أنني بدأت أعرف، ولعله قرأ بعنيني أن تلك كانت زيارتي الاخيرة .

الفصل الثامن

حروف غامضة

رغم النزر اليسر من المعلومات التي بالكاد كنت أستشفها من ركام اللغو في الجلسات الأخيرة، إلا أنها كانت كافية لأقطع شوطاً مشجعاً في مسيرة الكتاب. فقد كانت بمثابة مفاتيح للأبواب التي توارى خلفها أبي وجدي وإنجازاتهما التي طالما كانت تغمرني بالزهو، لكن أمي ظلت في منأى عن الذاكرة تقريباً حتى الان لذا آثرت أن أستعين بمحتويات الخزانة العتيقة لأقترب منها أكثر، ومع ذلك ظل الغموض يلفها بغلالة قاتمة لا تكاد تشف قليلاً حتى تعود الى الاختباء في الظلمة.. واستمر الامر على هذا النحو بين مد وجزر حتى عثرت على هذا الدفتر العجيب، دفتر ملاحظات صغير كتب بحروف أجنبية مربعة أنيقة ومتسقة كأنها حروف آلة طابعة، رسمت بعناية بحبر أسود.

صحيح أنني لا أعرف حرفاً من هذا الدفتر المشفر بيد أنه أمدني بأمل جديد إذا ما قُيِّض لي أن أجد يوما من يفك شفرته، ولأجل ذلك نسخت أول سطر منه بدقة ووضعت الورقة في جيبي، فلم أشأ أن أطوف بالدفتر على الورّاقين حرصاً عليه من الضياع أو ربما الافتضاح فأنا لا أدري ما به بعد.

ذهبت في اليوم التالي الى سوق السراي، ومررت بالمكتبة القانونية التي كنت مدمناً على مطالعة كتبها، قبل أن أطلِّق القانون ومقالاته ثلاثاً، فلم أجد بها أحداً أعرفه، دلفت الى زقاق السوق وأفطرت كبة مسلوقة كما أعتدت أن أفعل كلما مررت من هناك، ثم وقفت بباب مكتبة محمد العامرة بأقدم الكتب ودفعت له الورقة دون أن أقول شيئاً.. حدق بها ملياً وابتسم قائلاً..

- المطلوب ؟
- هل لديك كتاب أستعين به على ترجمة هذه اللغة؟
- اللغة عربية لكنها مكتوبة بخط عبري، يعمد اليهود أحياناً الى كتابة العربية الفصحى أواللهجة اليهودية البغدادية بالخط العبري. لدي كتيب لتعليم العبرية للناطقين بالعربية، فيه كل التفاصيل التي تحتاجها إذا شئت.
- أرجوك..

غاب الرجل عني بضع دقائق بين أكداس الكتب وعاد بكتاب قديم اصفرت أوراقه وتيبست حتى لتكاد أن تتكسر عند تقليبها، قلب الصفحة الاولى بعناية وأراني أبجدية حروف عبرية وعربية متقابلة فسررت بها أيما سرور، دفعت له دون نقاش وتأبطت كنزي بحرص وانصرفت غانماً.

شعرت في طريق العودة بالحنين لحانة حسون افندي، وأردت أن أكافئَ نفسي على هذا النجاح بزجاجة بيرة باردة في هذا الجو الخريفي

الخانق، دخلتها لأول مرة بعد نحو سبعة أشهر على وفاة يوسف، دفعت الباب الزجاجي المظلل فاستقبلتني رائحتها الاليفة وبرودتها المنعشة، القيت نظرة عجلى على الكرسي الذي طالما جلست عليه لنحو اربعة اعوام، وكعادتي حسبت بسرعة البرق أكثر من مئتي خميس نحرتها على مذبحه، وتساءلت وأنا أمر به هل عرفني؟ هل تعرفنا الجمادات وتحن الينا كما نعرفها ونحن اليها؟ اتجهت صوب البار فهش لي أبو عصام وبش، واعتنقني مشتاقاً، وضع لي مقعداً مرتفعاً قرب البار وفتح لي زجاجة بيرة وأمر النادل أن يجلب لي اللبلبي، ثم راح يتحدث بحماس عن الانطباع الطيب الذي خلفته زيارتي لألقوش في نفوس الناس هناك، إذ أخبرتهم أم يوسف عن ما فعلته كرمى لروح فقيدها، فقد سدَّدتْ ما كان يدين به، وتمكنت أخيراً من تحقيق حلمه بشراء الدكان الصغير الذي يديره عمه نظير إيجار معلوم يدفعه لأم يوسف شهرياً يضمن عدم حاجتها لأحد. وقد سرني هذا الخبر الاخير كثيراً، وأتيت على الكأس الاخير وهو يسألني..

- مارأيك بزيارة لألقوش في الذكرى السنوية. ستكون فرصة لتعرف تاريخ المدينة ومعالمها العريقة، أظنها سفرة ستغنيك عن قراءة كتاب.
- متى؟
- بعد خمسة أشهر.

- حسناً مازال الوقت مبكراً، ولكن يمكنك أن تعتبرني موافق منذ الان.
- حسناً اتفقنا إذن. ولكن لم تقل لي أي ريح طيبة ساقتك الينا اليوم بعد كل هذا الانقطاع؟
- لا أبالغ إذا قلت أنني كنت أتجنب المرور من هنا، لقد كان يوسف بمثابة ابني وبعد أن عرفت سر تعلقه بي زادني الامر حزناً على حزن، وتمنيت لو كنت أعرف ذلك من قبل لوقفت الى جانبه كأب حقيقي، فأنا وقد لا تعلم لا زوجة ولا أبناء، على أعتاب الخمسين وما زلت منذ وفاة أمي أعيش وحيداً إلا من أشباح الماضي.
- لك قلب نادر الوجود يا سيد يوسف.
- مازال الخير في الناس كثير يا أباعصام، وبالمناسبة هل تعرف امرأة خيرة خدومة.
- للزواج ؟ سأل مبتسماً
- أي زواج بعد هذا العمر يا أبا عصام، بل أردتها تدير شؤون البيت فلقد سئمت من خدمة نفسي. وأهم شيئين عندي أن تكون خدومة ومحط ثقة، فإذا كنت تعرف امرأة بهذه المواصفات أكون ممتناً لك.
- يصير خير، سأردعليك في غضون يومين على الأكثر.

مددت يدي في تلك الاثناء لأدفع، بيد أنه أمسكها وحلف أنها على حسابه، وزيادة في الكرم سارع الى فتح زجاجة أخرى، فقلت له أنني لم أعد أشرب إلا نادراً، لكنه أصر، ثم تركني أشرب على مهل واستمتع بطعم اللبلبي الساخن بالخل والزيت، وانصرف لبعض شؤونه وهو يدندن مع أغنية أم كلثوم (فات المعاد) ثم عاد بعد حين وجلس يرمقني خلسة بطرف عينه، ابتسمت له وأنا أسأله عما يجول بخاطره فرد على الفور..

- الحق يا سيد يوسف أنا متردد بشأن ماخطر ببالي الان ، وأرجو أن لا تسيء فهمي.
- بتُّ أعرفك ولن أسيء فهمك فقل ما بدا لك .
- حسناً.. الحق أنني وجدت لك ضالتك بيد أنني أخاف عليها كما أخاف على ابنتي، فهي يتيمة الابوين وكان أبوها صديقاً لي، هندياً فقيراً كان يعمل حمالا في سوق الصدرية، جمعني به التسوق وتلاقي الارواح، كان متزوجاً من امرأة كردية فيلية(*) مقطوعة من شجرة، توفيت بالسل بعد زواجهما بعشر

(*) الكرد الفيليون، طائفة من الكرد العراقيين يسكن معظمهم في محافظات بغداد وديالى وواسط، تعرض معظمهم في سبعينيات القرن الماضي الى التهجير القسري الى إيران، وصودرت أملاكهم، وأسقطت جنسيتهم العراقية، ثم استعادوا حقوقهم بعد سقوط الدكتاتورية.

سنوات وتركت له طفلين، جلنار وسعدي، ولم يلبث الرجل بعدها طويلا حتى تزوج بأرملة عاقر، عسى أن تعينه على تربيتهما وتكون لهما أماً، بيد أنها سامتهما سوء العذاب، حتى إذا بلغت جلنار الرابعة عشرة، رتبت لها زواجاً ظالماً من مشعوذ عليل في الستين من العمر، أو لنقل باعتها بيعاً، بيد أنه سرعان ما طلقها، ولم يكتفِ بذلك بل شوه سمعتها، وكان أبوها لاحول له ولا قوة حتى قتلة الهم والمرض، ولأنني كنت على تواصل دائم معه لأننا كنا نرتاد الكنيسة ذاتها كل أحد، فقد انتزع مني وعداً برعايتهما قدر استطاعتي حتى يعتمدا على نفسيهما. فتلاطمت بهما أمواج الحياة نحو خمسة عشر عاماً، وعملا في خدمة هذا وذاك، الخلاصة أنهما اشتغلا خلال الاعوام الاخيرة في أحد مشاتل الاعظمية واتخذا من سقيفة بائسة فيه سكناً لهما، الا أن البنت باتت تتعرض في الآونة الاخيرة الى مضايقات كثيرة من الزبائن، فأوصياني أن أجد لهما عملاً آخر فما العرض الذي تقدمه لهما معاً لأنهما لن يفترقا؟

- هل تحسن الطبخ وخلافه؟
- نعم فقد عملت من قبل طباخة وكانت ماهرة جداً.
- وهل هما محط ثقة كما اتفقنا؟
- لو لم يكونا كذلك ما ذكرتهما لك.
- حسناً فاليك عرضي.. سيعمل سعدي بستانياً، كما يتولى تأمين كل احتياجاتي خارج البيت من تسوق وخلافه، وتتولى

أخته شؤون البيت المعروفة، وسوف يسكنان في البيت الصغير الذي كان لسائقنا، ويأكلان مما آكل وأجري لهما الراتب الذي يرضيهما، وأما بشأن مخاوفك فالحل بسيط سيتصلان بك كل يوم ليطمئناك على أوضاعهما، وإن كنت لم أفهم بعد مبعث خوفك عليهما.

- عندما ترى جلنار ستفهم وتعذرني .

الفصل التاسع

الشقيقان

لكم أكره العودة الى البيت ليلاً، فهو ليس ككل البيوت، إذ لا أحد يستقبلك به غير الاشباح. نظرت اليه قبل أن أفتح باب السياج فلمحت نافذة العلية مضاءةً، رغم أنني أحرص على إطفاء الانوار كلها قبل أن أخرج، إلا مصابيح الصالة والحديقة، حسناً! يبدو أن هذا أول الغيث من هلاوسي، لذلك آثرت أن أمضي بعض الوقت أتجول في الجوار ريثما تتبدد من رأسي زجاجتي البيرة التي شربتها لأني أعلم بالتجربة أن أشباحي تحب الخمر، وتذكرت أنني لم آكل شيئاً منذ كبة الفطور غير آنية اللبلبي، رغم أنني أنجزت معظم مشاويري مشياً، فعزمت على أن أتعشى، دخلت أول مطعم صادفني، وطلبت صدر دجاج مشوي أكلته بلا خبز، وشربت بعده استكان الشاي على مهل لأقتل مزيداً من الوقت، وبعد أن شعرت أنني على ما يرام يممت وجهي شطر البيت، وكانت نافذة العلية مظلمة هذه المرة، دخلت غرفتي وخلعت ملابسي، وتحممت ثم أويت الى السرير، حينئذٍ فقط تذكرت الكتاب، وصفقت يداً بيد، يا إلهي لقد أضعته، ولكن أين؟ لا أدري، رحت أتعقب بالذاكرة خط سيري، يالله لكم تسكعت هذا اليوم بالذات، أين

تركته في أي المكتبات أو المحلات التي مررت بها، أو الشوارع التي ذرعتها كما لم أفعل من قبل، أم تراني تركته في التكسي التي أقلتني الى البيت، أم في المطعم الذي تسممت به أخيراً، كنت حانقاً على نفسي، بيد أنني تعلقت ببصيص أمل وحيد أقنعت به نفسي لأتمكن من النوم وهو أنني قد أكون نسيته على البار عند أبي عصام، ولم أشأ أن أتصل به الآن خشية أن يتبدد هذا الامل أيضاً ويجفوني معه النوم، لذلك توسدت الوهم الوثير، إنقلبت على جانبي الايمن ودسست يدي تحت الوسادة كعادتي حين أوشك على الاستسلام للرقاد، فإذا بها تأتي بالكتاب، قفزت من السرير فرحاً وهو بيدي، وجلست أقلب صفحاته بحرص، شممت رائحته العتيقة فعطست مراراً، تبدد النعاس وحل محله فضول لا يقاوم لكشف الاسرار، فأخذته وصعدت الى العلية، أنرتها وجلست أحول الحروف من العبرية الى العربية حرفاً حرفاً، ولا أدري كم مر من الوقت وأنا منهمك بتلك المهمة، التي بدت لانهائية ومملة لكنها تسلطت عليَّ فلم أجد سبيلاً للفكاك منها، قبل أن يرن جرس الباب رنيناً صاخباً، يا إلهي، من يأتِ في هذا الوقت المتأخر من الليل يا ترى؟ هبطت السلم أقفز درجتين درجتين ناسياً إصابة ركبتي، الرنين يتعالى والسلم يطول كأنه يغور في أعماق الارض، أركض أركض ولا أبلغ الباب، حتى انتهى بي المطاف الى زقاقٍ، ما لبثت أن عرفت أنه مغلق، وكنت أسمع خلفي لهاثاً كالخوار، ألصقت ظهري بالجدار، ونظرت الى مطاردي فكان ثوراً هائلاً، تولتني منه رعدة، وتواصل رنين الجرس

مجدداً، صحوت، على صوته، مع فيض لزجٍ ساخن، كنت أحاول أن أواري ما نزَّ من سائل شهوتي على سروال البجامة وأنا أفتح لهما الباب.

تركتهما جالسين في الصالة وفررت بأسراري الى الحمام أغتسل وأغير ملابسي قبل أن أعود اليهما، كان سعدي شاباً ضئيل الجسم في العشرينات بملامح هندية وبشرة حنطية، وشقيقته في الثلاثين، طويلة رشيقة بامتلاء محبب، لها عينان عسليتان واسعتان في وجه طفولي مستدير ببشرة برونزية صافية يتوجه شعر كستنائي طويل، تربطه بشال معقود تحت حنكها، كان لكل منهما جماله الخاص المختلف عن الاخر بحيث لا يسعك أن تخمن أنهما شقيقان، فليس ثمة ما يجمعهما غير هذه النظرة المفعمة بالطيبة والبراءة. فهو أقرب الى الطفولة منه الى الفتوة، وهي خليط عجيب من أنوثة طاغية وبراءة نقية. كانا ملتزين ببعضهما رغم سعة الاريكة، يحدقان بأقدامهما، صامتين، قبل أن يبادر الشاب الى الاعتذار دون أن يرفع رأسه..

- عفوا عمي.. حرمناك نومتك.
- بالعكس يا أبني لقد نمت كثيراً، أهلا بكما، هل أبلغكما أبوعصام بما أتفقنا عليه؟
- نعم سيدنا، رحم الله والديك مولانا، ندعوا الله أن يوفقنا لنكون عند حسن ظنك.

- تعالا حتى لا نضيع الوقت، أمامكما عمل كثير في البيت الصغير.

تبعاني بالنزول الى السرداب حيث أخرجت علبة مليئة بالمفاتيح القديمة يعلو بعضها الصدأ.

- جربا أيها يفتح الباب وثمة علبة زيت في تلك الزاوية لتزييت الاقفال الصدئة، ثم نظفا البيت جيداً فقد كان مهجورا لسنين طويلة واغسلاه بالديتول الذي تجدانه مع أدوات التنظيف في الحمام، وبعد أن تنتهيا يمكنكما أن تأخذا ما تشاءان من فرش واثاث من محتويات السرداب، فكلها زائدة لم نعد نستعملها، وأبلغاني عن أي احتياجات أخرى.

كانا يصغيان الي مطرقين، فقد بدا أن الخجل والامتنان عقد لسانيهما، فلم أشأ أن أحرجهما أكثر، لذلك تركتهما في السرداب وارتقيت السلم، ثم وقفت في منتصفه وهتفت..

- جلنار..
- نعم سيدي.
- أعدي فطوركما فأنتما لم تفطرا بعد، واجلبي لي فنجان قهوتي الى المكتب .

تبعتني فأرشدتها الى المطبخ ودخلت الى مكتبي أراجع آخر ما كتبت وأجري التعديلات عليها وادون الملاحظات، حتى دخلت علي بكأس

ماء وفنجان قهوة وصحن كعك، وضعت الصينية وظلت واقفة فرفعت رأسي اليها..

– هل تريدين أي شيء؟

– كلا سيدي أنا بانتظار طلباتك.

– شكراً يمكنك الانصراف.

توردت وجنتاها وهي تصغي ساهمة قبل أن تذهب، حينئذٍ أدركت ما عناه أبوعصام بقوله أني سأتفهم خوفه عليها حين أراها، فهي تحظى بجمال أنثوي يتألق مثل جمرة تتلظى تحت رماد البؤس .

أمضى سعدي وشقيقته كل النهار في تنظيف وصيانة وتأثيث بيتهم الجديد، ولم يشغلهما أي أمر آخر باستثناء الغداء الذي أعدته لنا جلنار على عجل معتذرة وهي تعد بأن تعوضه. وكنت جالسا في الصالة حين عادا معفرين بالتراب يتصببان عرقاً، لكن فرحاً غامراً كان يطل من عيونهما..

- ها ؟ بشِّر سعدي؟

- الف رحمة لوالديك سيدنا.

وعلقت جلنار..

- أحسن بكثير من سقيفة المشتل التي لم تكن تحمي من حر أو برد، جزاك الله خيراً سيدنا.

وأضاف سعدي..

- فضل لن ننساه طول العمر.

كنت أنقل بصري بينهما ولم أكن أقل سروراً منهما، ثم قلت..

- لا فضل لي عليكما، كان مرتعاً للفئران والحشرات وأنتما جعلتماه صالحا للسكن، حلال عليكما. والان ما الخطوة التالية؟
- جئنا نستأذنك بالذهاب الى المشتل لنقل أغراضنا من هناك وسنعود غداً بعد تصفية كل متعلقاتنا.

قلت ساخراً..

- حسناً، ولكن إذا خرجتما بهذا الشكل ستخيفان المارة. انتظراني لحظة..

رحت الى غرفتي وعدت لهما بعشرين دينارا دفعتها الى سعدي فردها شاكراً، لكنني أوضحت له بصرامة..

- لا عليك إنها دفعة مقدمة من راتبك.

وسألت جلنار مستنكرة..

- وفوقها راتب أيضاً؟
- وهل ستعملان بلا مقابل؟ خذ! خذ! وأنت ياجلنار تعالي لتطمئني أبا عصام عن يومكما الاول معي فهكذا اتفقنا.

إتصلت بمنزل أبي عصام فردت علي زوجته، طلبت منها أن تبلغه أنني أسأل عن كتاب ربما أكون قد نسيته على البار أمس، وبعد أن شكرتها، قلت لها أن جلنار تريد أن تكلمها، ثم تركتهما وعدت الى

المكتب وانهمكت بالكتابة نحو ساعة حتى تمكن النعاس مني فخرجت التمس سريري ، وما لبثت أن غفوت.

الفصل العاشر

جلنار

لا أدري ما لذي أيقظني بعد منتصف الليل، كان البيت موحشاً أكثر من أي وقت مضى، إلا أنني ركنت مخاوفي جانباً، وأخذت مصباحاً يدوياً، وتوجهت صوب الكوخ، أتفقد ما فعلاه، فكان لهسيس أوراق العنب تحت قدمي وقع غامض في النفس اقشعر له بدني وانتصب شعر جسدي الكثيف مثل قط، بيد أنني واصلت التقدم نحو المبنى المهجور، ألفيت الباب مواراً فدفعته وصرَّ الصرير الذي طالما كان من أصوات كوابيسي، وقفت وسط المكان أنقل بقعة الضوء على أرض جرداء نظيفة مازال فيها أثر بلل الماء، وظهرت على الجدران الممسوحة بالسعف بعناية، أثار صور قديمة منزوعة، وحتى السقوف بدت عليها آثار التسعيف، إذ لابد أنها كانت تعج بأعشاش العناكب من قبل، سمعت صوت قطرات ماء تدق على إناء نحاسي برتابة بعثت فيَّ مزيداً من الرهبة، وفي تلك الاثناء صرَّ الباب خلفي مجدداً ببطئ شديد ثم انغلق دون أن أشعر بنسمة هواء تغلقه، تسمرت في مكاني ولم أجد في نفسي الجرأة الكافية للالتفات اليه، فقد صور لي عقلي المريض كاكا

كريم منتصباً خلفي بجسده القردي المربوع، بل لقد شعرت بأنفاسه تلهب قفاي بحرارتها وسقط المصباح من يدي وتدحرج ضوؤه على الارض فتبعته الا انه راح يطوف في المكان قبل أن يستقر عند الباب الذي فوجئتُ أنه مازال مواربا كما كان أول مرة، تراجعت بخطوات حذرة مرتجفة حتى غدوت في الخارج حينئذٍ حثثت الخطى مبتعداً وقد بدا لي الممر طويلاً قبل أن أصل الى بيتي بشق الانفس وقد وجدت الباب مفتوحاً فهل كنت قد تركته هكذا؟ دخلت وأغلقته بإحكام وفكرت بصوت عالٍ(ماذا لوكان أحدهم قد دخل أثناء وجودي هناك؟)ثم أردفت(أحدهم يعني الأشباح؟) وأجبت(لكنها لا تأبه بالأبواب الموصدة ، لأنها هنا)وصفعت جبهتي (هنا معي حيثما ذهبت)، حينئذٍ أدركت معنى القول الذي كنت أحسبه متناقضاً(لا أؤمن بالأشباح لكني أخافها) فها أنا لا أصدق بوجودها الخارجي إلا أنني أخشى أن تصل بي الى الجنون . ثم هونت الأمر على أمل أن تكون هذه آخر ليلة أمضيها وحيداً، فشكل ذلك خير عزاء لي، ولكن ماذا لو حصلا على عرض أفضل وتراجعا عن الاتفاق؟ يا إلهي! أنا لم أفكر بهذا الاحتمال، ماكان علي أن أدعهما يذهبان فقد يعرض عليهما شخص ما عرضاً مغرياً فيتركاني، حينئذٍ قد لا أجد سبيلاً غير الانتحار، فلست مستعداً أن أمضي آخر عمري في الشماعية(*) فقد

(*) مستشفى الأمراض العقلية في بغداد.

بدا لي استحالة أن أبيت ليلة واحدة أخرى وحيداً، كيف إذن أمضيت كل هذه السنين الموحشة مع وحدتي وأشباحي؟ ومالني الان لا أطيق ليلة واحدة، ليتني أستطيع الاتصال بهما الان لأقول لهما أنني سأدعهما يشاركانني السكن فالبيت كبير يسعنا جميعاً، إذ قد لا يناسبهما الكوخ. هل يكون للأمل أحياناً وجع يفوق ما لليأس، ولليأس راحة تفوق ما للأمل. نعم! أحسب أنه كذلك.

طافت عيني بالمقاعد التي جلسا عليها، تحسست أثر جسديهما على شرشف الاريكة برفق كي لا أعبث به، شممت رائحة يدها حيث كانت تفرك بأناملها حافة المتكأ برتابة لتقاوم حيائها ، تعقبت خطواتهما في المكان ، دخلت المطبخ

أتحسس الصحون عسى أن تكون مازالت مبللة من نمير كفيها، ثم عثرت على جلنار، وجدتها كلها في ورقة صغيرة على الخوان كتبت عليها(عشاؤك في الثلاجة)رحماك يارب! كيف أمكن لبضعة كلمات أن تؤرجحني هكذا، لم أعد أقوى على الوقوف ارتميت على أقرب كرسي ألثمها غير مصدق، كان أثمن مافيها هذه (الكاف)العجيبة، كانت سمفونية لوحدها، إنها أنا كلي، لقد ملأت الكلمات البيت كله بوجودها الحنون، لأول مرة منذ آلاف الليالي والايام يهتم أحد بعشائي، فكرت في سري خشية أن تتبدد بهجتها اذا صارت منطوقة، نعم فكرت، ألم يكن بوسعها أن تقول ذلك قبل أن يخرجا، نعم، ولكنها اختارت أن تكتب لي، بما يعني أن الأمر بيننا هي وأنا فقط،

ولتضمن وجودها معي الليلة رغم غيابها، فعلت ذلك لتقول أن قلبي غدا منطقة نفوذها وحدها. ومثل ولد مؤدب يسمع كلام أمه فتحت الثلاجة وأخرجت صحن الكبدة المقلية وجلست أتذوقها على مهل، أعني أتذوق جلنار وليس الكبدة، قطعة قطعة، حينئذٍ شعرت أن للبيت سيدته، جلنار جلنار جلنار، رحت أردد اسمها الياقوتي النادر الثمين الذي يعبق بزهر الرمان، جلنار، جنة نار، جنة جمالها ورقتها وحيائها، ونار أنوثتها الملتهبة التي أوقعت سليل الباشوات المعقد المتبتل بحبها من أول نظرة، هذا ما خشيه أبو عصام إذن، وكان محقاً(حين تراها ستفهم ما أعنيه)نعم! لقد فهمت، ولكن هل كانت عنايته بهما حتى الان وفاءاً لذلك الهندي البائس أم حباً لها؟ لا،لا، أين شطح بي الخيال؟ ثم وإن كان الامر كذلك، لا يعنيني؟ فهو لم يحظَ منها بكاف كهذه التي سأبروزها بالذهب، والا لترك الدنيا بأسرها وتبعها، فها أنا ذا أتعلق كالغريق بقصاصة ورق منها لاغير، سيقال لا أصل لها ولا فصل؟ وإن؟ سيقال أنها لأب حمال هندي وأم مقطوعة من شجرة؟ وإن؟ أية لعنة لذيذة وثمينة هذه التي لن أتورع عن دفع عمري كله، مالي وجاهي ونبل اسلافي كله لشهد عينيها.(عشاؤك في الثلاجة)هه.. لا أحد في الدنيا كلها يمكنه أن يدرك ما فعلته بي هذه الكلمات تواً، إنها طوق النجاة الذي القي الي وأنا أشهق النفس الاخير وأوشك أن أتبدد في القاع . خرجت الى الصالة لأتأمل ثانية أثر جلستها على الشرشف الازرق للأريكة، أي سحر ساقه الرب الي باسم جلنار؟ لقد ملأت البيت

بوجودها العطر، فتبددت أشباحه. شعرت بالأمان، ولم ألبث ان غفوت في حضن أمي لأول مرة منذ أربعين عاماً.

وفي الصباح الباكر صحوت على أصوات عودتهما، وقفت قرب نافذة الصالة أتامل رفيفهما، وهما يحملان القش لعشهما الجديد بصبر ومثابرة، غمرتني البهجة وأنا أرى الكوخ المهجور يستعيد دفأه القديم وتتلاشى أشباحه، وتبعث نوافذه حية تنبض بالضوء والانفاس مرة أخرى. شعرت بالارتياح وأنا أردد في سري؛ سوف لن أكون وحيداً بعد اليوم، وتملكني الحماس ففكرت أن أشاركهما متعة العمل، بيد أنني أحجمت لأجل جلنار فهي لن تكون على سجيتها بوجودي، إذ مازال الوقت مبكراً، والا غدوت ضيفاً ثقيلاً.

شعرت بنشاط لم أألفه من قبل، أعددت فنجان قهوتي وجلست أرتشفه في الشرفة متأملاً الحديقة كما أريدها أن تكون، رأيت بعين الخيال أحواض الزهور وأصص النباتات النادرة وبساط العشب الوثير كالفرو، تطوف به طيور من كل لون، تتوسطه نافورة وسط بركة ماء نقي يشف عن أسماك تلهو. وعلى مقربة، تتهادى تحت عريشة الكرم حورية عسلية من شعرها الى كعبيها العاريين.

لم يطل بي المقام اذ سرعان ما قطع علي خيالاتي قدومهما، فقد رتباً أثاثهما البسيط وقدما يزفان لي بشرى اكتمال البيت ودعواني لرؤيته.. وبدا لي المكان الذي كان وكراً للأشباح، حضناً دافئاً. عدنا الى الصالة وأعدت جلنار طعام الغداء فتناولناه في المطبخ وبالكاد أقنعتهما

أن يأكلا معي ثم شربنا الشاي في الصالة، جلسا أمامي ملتصقين ببعضهما كما فعلا أول مرة، فقلت لسعدي..

- يبدو أنكما وافقتما دون أن تعرفا إن كان سيناسبكما الراتب أم لا.
- بعد أن تأمن لنا المسكن والمأكل،فأي مبلغ بسيط يناسبنا.
- كم كان راتبكما من المشتل؟
- ثلاثين ديناراً.
- لكليكما؟
- أنا فقط كنت أعمل أما جلنار فقد كانت تساعدني أحيانا .
- هنا كلاكما ستعملان، لذلك سيكون لكل منكما ثلاثون دينارا، ما رأيكما؟

أطرقت جلنار خجلة فيما رد سعدي قائلاً..

- هذا كثير .
- ليس كثير من أب لأبنائه. اتفقنا؟
- كثر الله خيركم عمي .

الفصل الحادي عشر

تلصص

مضى نحو إسبوع على عمل الشقيقين عندي، ودارت عجلة الحياة كما كنت آمل، واتخذت روتينها، يستيقظان في الصباح الباكر قبل أن أصحو، يجلب سعدي كل الاحتياجات التي تطلبها منه أخته، وفي تلك الاثناء تكون قد انخرطت بالعمل المنزلي المعتاد من تنظيف وترتيب، قبل أن تعد الفطور. يتناول سعدي فطوره وينطلق للعمل في الحديقة، يرعى نباتاتها الجديدة. يزيل الاعشاب الضارة، يسقي ويقلم ويسمد ويرش الدواء، يقلع هنا ويزرع.

صحوت مبكراً، لكنني ما زلت في السرير حين سمعت جلنار تطوف بالبيت في جولتها الصباحية المعهودة فلم أشأ أن أخرج فأقاطعها، كان باب غرفتي مواربأً، مرت من أمامه تمسح ارض الصالة راكعةً على ركبتيها وقد انفرجتا عن فخذين بضين ناعمين يتوسطهما لباس داخلي ضيق أسود منقط بدوائر بيضاء، أوشكت أن ترفع رأسها وتضبطني أختلس النظر اليها لذلك انقلبت على جنبي الاخر، وفي اللحظة عينها كانت قد رفعت رأسها، هل رأتني؟ يا إلهي، يا لي من أحمق متصابٍ عديم الوجدان، ألم أقل لهما أنهما بمثابة ولدي، شعرت

بمزيج من الخوف والندم وراحت أنفاسي تتلاحق، تجمدت في مكاني خشية أن تشك بي، شعرت أنها دخلت الغرفة ووقفت خلفي تماماً تحدق بقفاي، لكنني لم أجرؤ على الإتيان بأدنى حركة متظاهراً بالنوم، بيد أن لهاثي كان مسموعاً، أصغيت بكل جوارحي لحركتها ورحت أتابعها بعين الخيال، ها هي تقف الان أمام المرآة تصلح شعرها، ثم راحت تقلب بعض الأشياء على المنضدة، لعلها التقطت قارورة عطر، توقعت أن تتورط بفتحها فيفتضح أمرها، وسرعان ما حدث ما توقعت فقد ملأ العطر جو الغرفة، لقد فعلت ذلك كله دون أن تغفل عن مراقبتي خلسة عبر المرآة، اللعنة! لقد كشفتْ أمري وكان ما كان، بيد أنها ما لبثت أن خرجت وأغلقت الباب خلفها بهدوء، قفزت من السرير مثل غريق أخرج رأسه من الماء تواً، وعجلت بفتح النافذة لأحظى بهواء جديد غير هذا الذي لوثته أنفاسي الدنسة، فكانت المفاجأة، لقد رأيتها في الحديقة الخلفية معفرة بالتراب الرطب وهي تساعد شقيقها بنقل بعض الاصص عن أشعة الشمس .

الفصل الثاني عشر

حبة ومقسومة

في صباح اليوم التالي قررت أن أعالج تبعات الصباح الفائت فتنحنحت قبل أن أخرج من غرفتي الى الصالة مستذكرا وعدي لأبي عصام أن أعتني بهما. سمعت رُشاش ماء الحمام، فجلست أنتظر في الركن البعيد من الصالة، مولياً وجهي شطر الحديقة، وما لبثت أن خرجت ووقفت خلفي تعتذر..

- آسفة ياسيدي، لن أفعلها ثانية.

التفت اليها فكانت تقطر عسلاً، الجمتني فتنتها لبعض الوقت قبل أن أسأل بذهول..

- عـمَّ تتحـدثين يا..(أردت أن أقـول ياعمـري لكنـني ختمـت كالابله) ها ؟
- عن استعمال حمامك يا سيدي، حسبت أنك ماتزال نائماً.
- حمامي؟

لكم وددت أن أقول لها شكراً لأنك عطرته بماء جسدك لكنني لم أضف كلمة واحدة، فقد كنت أحاول أن ألملم بعيني أطراف هذا العالم العسلي، ويبدو أنها فهمتني بحدس الأنثى فتوارت مخلفة وراءها شظايا

قلبي الوحيد. ولم تلبث أن عادت بهيأة أخرى تحمل فنجان قهوتي وقالت..

- دقائق ويكون فطورك جاهزاً سيدي.
- شكراً، على راحتك. وتذكري دائماً أن لا تستحمي في مكان آخر.
- شكراً سيدي.

أخذت فنجاني الى غرفة المكتب حيث كانت الاوراق بانتظاري، فقد شغلت عنها في الايام الاخيرة، جلست أقلب آخر ما كتبت وتذكرت البوم الصور التي لاشك أنها ستنعش ذاكرتي فصعدت الى العلية وعدت به، وفيما كنت أهبط مشغولاً بالتحديق بإحدى الصور زلت قدمي وكدت أن أقع لولا أن تمسكت بحاجز السلم في آخر لحظة وسمعتها تهتف..

- اسم الله عليك ، سلامات.

كانت تقف في تلك الأثناء وسط الصالة بفستان أزرق يكشف عن ربلتي ساقيها الشهيتين فتشاغلت عنها بالالبوم وأنا أعلق ساخراً..

- حكم العمر.

وبدت ملاحظتي تافهة لا تستحق الرد، وقد اكتفت بالصمت، في حين شعرت بالندم لأنني بتُّ أتمادى بتلميحات لا تناسبني في الآونة الاخيرة، ويبدو أنها تذكرت ما جاءت بشأنه فقالت، وهي تتبعني الى المكتب..

- الفطور ياسيدي هل أجلبه لك هنا أم تتناوله في المطبخ؟
- دعيه في المطبخ، وأنتما هل أفطرتما ؟
- نعم سيدي، نحن نفطر باكراً فور نهوضنا.

نحيت الالبوم الذي كنت اتصفحه جانباً بينما وقفت جلنار تقلب بصرها في صور العائلة على الجدار تتوسطها صورة أبي الباشا، ودون أن تسأل عن صاحب الصورة قالت، قبل أن تسبقني الى المطبخ..

- سبحان الله أنتما حبة ومقسومة.

الفصل الثالث عشر

مباهج الحمى

كان الماء يتدفق بين الصخور بارداً نقياً كالزجاج تتراقص على حافتيه زهور صفراء، وثمة جدي صغير يربع على العشب في الضفة الأخرى آمناً مطمئناً قبل أن ألمح نسراً يتربص به في غيمة سوداء ويرسم في تحليقه دوائر بدت تضيق وتدنو، شعرت بالخطر المحدق بالجدي فهتفت..

- بابا، بابا! النسر، الجدي !

لكن أبي كان مسجىً على حافة الجدول عارياً تماماً، بجسده النحيل الشاحب الاملس الملطخ بالطين، مثل جثة غريق أخرج من النهر تواً. كررت هتافي مراراً دون أن يرد، لقد بدا لي العالم موحشاً مقفراً قبل أن تنبثق جلنار من العدم وتنطلق صوب الجدي بأقصى سرعة تخوض الماء وقد لمت أذيال فستانها الازرق وكشفت عن طغيان فخذيها، كادت تصل الى الجدي بيد أن النسر كان أسرع منها فخطفه بمخالبه وحلق عالياً، حيث كان يضطرب معلقاً بين الارض والسماء ويثغي بصوت مثل بكاء طفل رضيع.. ومن ذلك الارتفاع الشاهق رأيت أمي ترافق ظلها ممسكة بيده الظلماء وتتوغل في عمق الوادي، بينما كانت جثة

أبي تتابعهما بعينيها الزجاجيتين الميتتين. شعرت بالغثيان وأنا أهوي ببطءٍ فقد كان لريش النسر رائحة الدهن الحر، وكنت أسمع أثناء سقوطي جلنار تصيح (إحذر الحبة المقسومة) ثم تدلى رأسي من حافة السرير ورحت أقيء بغزارة، غسلت جلنار وجهي بكفيها بماء بارد وربتت على خدي كي أصحو، ويبدو أنني كلما صحوت عدت مجدداً الى تهويمات النوم والحمى والهذيان.

كنت أجثو عند النصف السفلي العاري من جسدها ألثم زهرتها، تداعب شفتي الزغب الحريري الناعم بشغفٍ، فتختلج، ولا يسعها أن ترد اللذة كما لم تفلح بالخلاص من محدثها الغامض الدبق الذي التصق بالمكان كاللعنة يهذي بلغو لم نفهم منه كلمة واحدة، مددت لساني بين أكمامها فشاغت روحها وند عنها أنين مكتوم، ثم نهرته بنفاذ صبر.

- آآآآآه، قلت لك نعم، نعم! ولكن دعني الان بالله عليك وعد في وقت آخر.

ماكان يرى غير النصف العلوي المستور من جسدها، ومن ثم فلم يكن يدري بما يحدث تحت المكتب، لكنه لم يستجب لها ومكث في مكانه لا يبارحه، هل كان مرتاباً بالوضع أم لعله اكتشف أخيراً وجودي بين فخذيها(تساءلت)لكنه لم يمهلني لحظة لأفهم إذ سرعان ما نط من فوق المكتب متخذا شكل ثور أسود وراح يطاردني، كنت أسمع لهاثه يقترب مني وبت أتوقع انقضاضه عليَّ بأية لحظة، حتى انتهيت الى الزقاق

المسدود الذي أنتهي اليه في كل كوابيسي، الصقت ظهري بالجدار وأفرغت شهوتي وصحوت على اللزوجة الساخنة.

وفي الحمام حيث كنت أغتسل من حماقاتي، رأيت كاكا كريم متسمراً على طول المرآة يحدق بي بصمت، شلت قدماي ولم أتمكن من الفرار، مددت يدي لأفتح الباب فأمسك كفي بقبضته الحجرية حتى كاد أن يكسر أصابعي، صرخت بلا صوت، فلم يلقِ لي بالا بل عمد الى فتح ماء الدش وابتللنا معاً، وراح يحدق بي بابتسامة مبهمة ويذوب تحت الوابل مثل عمود ثلج تحت الشمس حتى تلاشى تماماً، وقد تركني واقفاً أمام مرآة خالية، مجرداً من انعكاس صورتي كما لو أنني شبح، حينئذٍ فقط انطلق صوتي بالصراخ؛ سعدي! سعدي!

وعلى مدى الايام الخمسة الاخيرة كنت لا أخرج من كابوس أو ضلالة إلا لأقع بأعمق منها، وكان عالم ما بين الكوابيس والهلاوس مفعماً دائماً بالوجود اللذيذ لجلنار، أنام وأصحو على مرض ليس كمثل بهجته شيء، مرضٍ لم أذق ألذ منه في حياتي كلها، بحيث أنني تمنيت أن لا أشفى منه أبداً. حتى نوبات الحمى المبهجة التي كانت تنتابني طفلاً وكنت أتعمد إطالتها بالتمارض، لم تكن بهذه الحلاوة. لقد هجرت جلنار الدنيا بأسرها وانشغلت بطفلها المدلل الوحيد، كنت أسمعها أنيني لتزيدني رعاية، وأستمتع بالقلق في عينيها، أما ترقرق الدمع في مقلتيها الشهلاوين فذاك مما لم يخطر ببال من وصفوا جنة الخلد كي يضعوه بين لذائذها المغرية.

كانت، إذا تناهى لسمعها أنيني، تخف الي من أي ركن في البيت تاركة خلفها كل المهام معلقة، تجلس عند حافة السرير فيلامس جسدها اللدن جسدي المتوحش، أتظاهر بالنوم أو الغيبوبة لأحظى بالمزيد من قربها وملامستها، تجس عنقي بكفها الحريرية فأرتجف، وهي تحسبني أرتجف من الحمى، لكنني من الرغبة المجنونة أرتعش، أختلس النظر الى عينيها اللوزيتين وهي تضع براثن كفي بين يمامتي كفيها فتسري فيَّ قشعريرة أنتفض لها، التز بها دون وعي فينتصب رخامي، واسارع للانسحاب قليلاً كي لا تحس بي، ولكن بالقدر الذي لا يحرمني الدفء الذي يشع من جسدها، الجسد الذي طالما تلمسته بكل خلية من جسدي كلما أخذتني الى الحمام متكئاً عليها بغياب سعدي الامر الذي ماكنت لا فعله إلا في غيابه لأحتضنها حتى الباب، وكم مرة تمنيت أن لا نصل أبداً.

- أين كان عنك كل هذا العناء يا جلنار؟

قلت لها ذات صباح مشفقاً وقد شعرت أنني تماديت كثيراً فردت.

- تعبك راحة سيدي، والله لو فعلت ذلك العمر كله لن أوفيك حقك، لكنني أتمنى أن تعود سليماً معافى اليوم قبل غدٍ. لقد اشتقنا لوجودك معنا على مائدة الطعام.

ألجمني ردها المفعم بالبراءة والوفاء، كرهت نفسي وشعرت بالاشمئزاز، وتملكني شعور ممض بالذنب وتأنيب الضمير وعزمت على وضع حدٍ لهذه اللعنة الشيطانية التي تمكنت مني في الايام الماضية، فقلت..

- أعدي فطورنا ، سوف ألتحق بكما بعد قليل.
- صدقاً سيد؟ هل تشعر أنك بخير؟ هل ستنهض من السرير وتأتي بمفردك؟
- نعم أنا بخير.
- الف حمد وشكر لك يارب.

لقد غمرتها فرحة عارمة حتى همت أن تقبلني لفرط سرورها لكنها جعلتها مجرد تربيتة على الخد وانطلقت تزيح الستائر وتفتح النوافذ قبل أن تغادرني بخطى مرحة وتناهى لي صوتها من بعيد وهي تزف البشرى لشقيقها..

- سعدي! هل عدت من السوق؟

وسمعته يرد من الحديقة، بلهفة وقلق..

- نعم ما الامر؟ قولي بسرعة.
- إنه بخير، اترك ما بيدك وتعال بسرعة، سيتناول فطوره معنا.
- حقاً؟ بشرك الله بالخير.

وسمعت خطاه تقترب بسرعة، طرق الباب، وانتظر حتى سمعني أقول ادخل، هرع ، وارتمى عليَّ مقبلاً يديَّ .

- الف الحمد لله على سلامتك مولانا، لقد كنا في غاية القلق عليك، هل ستخرج اليوم، سأريك الحديقة لقد صارت جنة كما تريدها .

ها هو الضحية البريئة الثانية لكذبي وخداعي، من قال أن الجحيم في عالم آخر؟ أبداً ! إنها تمور فينا. وها هي ذي تسومني سوء العذاب، فإذا بي مجرد حشرة ضئيلة تحت أقدام هذين الكائنين النقيين، وهاهم زبانيتها يجلدونني لما فعلت بحق قلبين طيبين يكنان لي كل هذا الوفاء فيما كنت أضمر لهما الشر، وقد بدت ابتسامتي التي قابلته بها مثل تكشيرة وحش يوشك أن يمزق فريسته، وبدا لي أن كل بحار الأرض لا تكفي لتطهير روحي الدنسة.

- هل أتصل بأبي عصام فقد زارك أثناء غيبوبتك وكان يتصل ليسأل عنك كل يوم تقريباً.

قال ذلك قبل أن يجثو عند طاولة الهاتف الصغيرة، فأشرت له أن يفعل، وبعد أن أمَّن الاتصال، أفترت شفتاه عن ابتسامة صادقة لتُعدا كلمات الخبر السار، ثم سلم على أبي عصام وبشره أنني بت بخير وأريد التحدث اليه، ثم أعطاني السماعة..

- أهلا يا صديقي، أشكرك على اهتمامك وزيارتك لي أثناء مرضي، قد أمر بك عصراً.
- أهلا سيد يوسف يسرني أنك بخير، مرحباً بك في كل وقت، بالمناسبة قيل لي أنك تسأل عن كتاب مفقود، للأسف لم نعثر عليه في الحانة ربما تكون قد تركته في مكان آخر.
- أها.. نعم، شكراً لك، في أمان الله.
- في أمان الله

ويبدو أن جلنار كانت بانتظار انتهاء المكالمة لتهتف من هناك أن الفطور جاهز.

أخذ سعدي بيدي ليساعدني على النهوض فسحبتها بلطف ، وتمطيت عند الباب ملقياً عني خطايا الايام وعازما على فتح صفحة جديدة.

الفصل الرابع عشر

التوبة

كنت أدرك أن تعاطفي مع جلنار وشقيقها وأمثالهما من البؤساء، لا يسعه أن يتجاوز الحاجز الاجتماعي والثقافي المرتفع بيننا، لذلك تعين علي، ما دمت حريصاً على الوفاء بعهدي لكفيلهما وتجنب جحيم ضميري الذي لا يرحم، أن أكف عن محاولاتي الصبيانية مع هذه المسكينة الى الابد، ولأجل ذلك بات لزاماً عليَّ أن أخفف الى أقصى حد مظاهر الاندماج التي تماديت بها كثيراً، وأن أتجنب رفع الكلفة بيننا دون أن أجرح مشاعرهما، والا فإنني سوف أنجرف مع عواطفي مرة أخرى وقد لا أجد كل مرة الارادة الكافية للعودة الى جادة الصواب فيقع المحذور، وافقد وقاري وأعتباري.

وكانت خطوتي الاولى هي الكف عن الجلوس معهما على مائدة واحدة، وقد عمدت لتنفيذ ذلك دون أن أكسر خاطرهما الى التحجج بالإنشغال بالكتابة طوال الوقت بحيث غدوت أتناول الطعام بمفردي في المكتب. وبمرور الايام فقدت حياتي بهجتها السابقة، وتحولتُ الى مجرد آلة للكتابة، إلا أنني بدأت أقطف ثمار توبتي ممثلة بقطع شوط غير مسبوق في تأليف الكتاب، كما أن توغلي بالماضي النبيل لأسرتي

ساعدني على ترميم ما هدمته عواطفي من ذلك الحاجز القدري، ورفعه أعلى وأعلى .

ورغم كل الحرص على التمويه إلا أن جلنار كانت حساسة جداً، وقد لمست التغير وبدا لي أنها لم تقتنع بحججه لكنها تفهمته واستسلمت له على مضض. وقفت مرة أمامي منكسرة وكأنها فقدت شيئاً عزيزاً الى الأبد، وسألتني بمسحة عتاب..

- هل أنت راضٍ عنا يا سيدي.

وقسوت خشية الضعف فرددت بجفاء مبالغ فيه..

- ما دمتما تؤديان واجباتكما، ولكن ماذا تريدين الان؟
- لاشيء يا سيدي ، جئت أرى طلباتك قبل أن أنام.
- لست بحاجة لشيء يمكنك أن تذهبي.

ولم أرد تحيتها حين قالت تصبح على خير سيدي، يا لقلة الذوق، التي سأندم عليها بقدر شعر رأسي ذات يوم حين تندلع الجحيم التي بداخلي مجدداً وتحطم الجدران .

الفصل الخامس عشر

الطريق الى القوش

كنت جالساً في المكتب كعادتي، حين رن جرس التلفون وكان المتصل هو السيد ميخا يذكرني بأن السفر المتفق عليه الى القوش سيكون غداً.

- أوف! حقاً؟ (ثم أردفت مندهشاً ..)أذكر أنك قلت آخر مرة أن أمامنا خمسة أشهر.
- آه.. نعم! نعم! لا تؤاخذني يا صديقي(رد ساخراً) أنت على حق ، بت أنسى هذه الايام، فعلا لقد قلت ذلك، قبل خمسة أشهر لكنني نسيت، وأنت لم تنس، اللهم لاحسد.

وانفجرنا ضاحكين ثم أردف..

- والان مارأيك هل نجدد خمسة أشهر أخرى أم نذهب غداً .

انتهت مكالمتنا المرحة على وعد من أبي عصام بالمرور بي فجر غدٍ لننطلق الى القوش في رحلة سياحة ولمزيدٍ من التعارف بيننا كما وصفها، والحق أنني وجدت بها مهرباً من الروتين الممل الذي غرقت به في الآونة الاخيرة، وفي تلك الأثناء لمحت جلنار تحوم قرب الباب كأنها

تنتظر انتهاء المكالمة بفارغ الصبر، وبالفعل سرعان ما أطلت مترددةً ممتقعة الوجه.

- خير جلنار، ما ورائك؟
- سعدي.
- مابه؟
- بات يضربني على أتفه الامور.
- ماذا؟

هتفت مستنكراً وسألتها أين هو الان فأخبرتني أنه يعمل في الحديقة. هرعت اليه غاضباً وصرخت به وكان منحنياً ينبش الارض فجفل وسقط ما بيده، ثم وقف أمامي يرتجف، ورغم أنني أشفقت عليه في تلك اللحظة ولكن كان لابد لي من رسم الحدود والقواعد في بيتي حتى لا تنفلت الامور، فواصلت ثورتي..

- إسمع سعدي! أنت لم ترَ الوجه الاخر لي، أقسم بالله العظيم إن مددت يدك عليها ثانية سأقطعها لك، أنا لا أسمح أن تتسلل هذه الاخلاق الهمجية الى بيتي، بمعنى أن لا مكان لك في بيتي إذا استمر منك هذا السلوك المعيب، هل فهمتني ؟
- نعم سيدي ولكنها..
- لا تحاول أن تبرر(قاطعته بصرامة وأردفت) أي سبب للخلاف يمكن حله بالتفاهم الهادئ بينكما، وإذا تمادت بالخطأ بحقك،

أنا موجود، أما الضرب فلا والف لا. ألم نتفق من قبل أنني بمثابة أبيكما؟

لطخ يدي بالتراب وهو يحاول تقبيلها ويعدني أن لا يفعل ثانية. وقلت لأخفف من أثر ثورتي عليه بعد أن حققت هدفها..

- إسمعا! أنتما تعرفان أنني أشفق عليكما وسوف تكون حياتكما معي أفضل، ولكن بشرط أن تحترما النظام الذي اعتدت عليه في بيتي منذ طفولتي،حيث لا صراخ، لا ضرب، لا شجار، وكل شيء يتم بالرجوع الى العقل والانصاف. وأنت يا سعدي إن كنت تريد رضاي فلترضَ عنك شقيقتك الكبرى، فهي ليس لها أحد سواك، هيا قبلها واعتذر لها لنبدأ صفحة جديدة.

ودون أن ينبس بحرف تقدم منها منكسراً وقبل جبينها معتذرا ووعدها أن لا يفعل ذلك ثانية، فأجهشت المسكينة بالبكاء واعتنقته مثل طفلة، وأبكتني، ففررتُ بسرعة كي لا يريا دموعي. يا لغباء الرجل حين يواري دموعه، ويخجل من رمز انسانيته وشرفه وفخره، بعجرفة فارغة، فلا ماء العماد ولا الوضوء، يمكن أن يصل الى الروح ويطهرها، كالدموع.

كانا ما يزالان نائمين فجر اليوم التالي حين سمعت منبه السيارة وخرجت بهدوء، وبعد نحو نصف ساعة كنا خارج بغداد، وكانت الشفروليه تطوي الارض بمحركها الجبار شمالاً، وبدا لي أن صديقي مغرم

بقيادتها غرامي بقيادة المارسيدس، ودخلنا بنقاش طويل حول النوعين، إنتهى بتسليمه لي ولا أدري إن كان ذلك عن قناعة أم مجاملة، وبعد لحظة صمت، سألني عن رأيي بالشقيقين، فاعترفت له بأن حياتي تغيرت بفضلهما الى الأحسن، ولم يعد البيت موحشاً كما كان من قبل، ثم تذكرت ما حدث أمس فأردفت..

- ولكنهما مازالا غشيمين، تصور أنهما يتشاجران كالأطفال.
- أمامك ؟
- لا..

ثم سردت له كل ما حصل، فقال ..

- حسناً فعلت، يا للذكور! هذا جزاء خدمتها له، لقد كانت له أماً وماتزال.. كبرت المسكينة بسببه رغم أنها تكبره بثلاث سنوات فقط. مالهم الذكور يا سيد يوسف ما أن تنبت شواربهم حتى يتوحشون ؟
- إنها التربية يا صديقي، يقولون للذكر منذ الطفولة إشكم أختك لا تدعها تخرج، أنت الرجل، وحامي الحمى، وسيد البيت، وصاحب الكلمة العليا، وما الى ذلك من العبارات التي تجعله قاسياً متعالياً متنمراً على شقيقته، وإذا تزوج انتقل ظلمه الى زوجته المسكينة، فإذا أنجب بنتاً ورثت نصف ما لشقيقها إلا من العذاب فإنها ترثه كله .

- نعم هذا صحيح. لا، والمصيبة يا سيد يوسف أن الفتاة نفسها تصدق الكذبة، وتستسلم لها فإذا صارت زوجة غدت خانعة، وإذا صارت أماً بدأت تربي ابنتها على الخنوع. وهكذا يكون الامر قد دخل في دائرة مفرغة لانهاية لتبعاتها .
- وماذا بشأن الدين؟
- هاهاها..هذا موضوع يتطلب دوام بعد الظهر.

شاركته الضحك دون أن أفهم ما كان يرمي اليه فتدارك الامر وأردف موضحاً..

- الدين يا صديقي، مع الاحترام لأصحاب الاديان كلها، كرس هذا التمييز وحصنه بالنصوص المقدسة ليمنع المساس به، فغدت أية محاولة لتغييره كفراً. ولا تنسَ أن المرأة المتدينة نفسها تؤمن أنها عورة وناقصة وضلع أعوج وما الى ذلك من الصفات، بحيث غدا من واجباتها أن تعين الرجل على ظلمها لتحظى بالأجر والثواب وتنال الجنة دون أن تشعر بعمق المفارقة .
- الجنة؟ هاهاها..أنا لا أدري لماذا تسعى المرأة الى الجنة لا مكان لها فيها ولا ذكر.
- فاجأني رأيك؟
- لماذا؟ فنحن متفقان .
- نعم لحسن الحظ، ولكنني حسبت أن لأسرتك رأياً آخر.

- أهـا.. نعـم فهمتـك، ولكننـا ، أنا وأبي مـن قبـل، تمـردنا علـى أسلافنا ودفعنا الثمن غالياً، ألم ترَ أننا اقتربنا من عش الدبابير كثيراً.
- هاهاها.. لا يا صاحبي لقد اقتربنا من القوش أكثر.

ودهشت حين انتبهت أننا على مشارف المدينة لقد بدا الطريق أقصر من المرة السابقة حين كنت وحيداً.

الفصل السادس عشر

القوش

كـان أول شـيء فعلتـه بعـد الوصـول الى القـوش هـو الاتصـال بالبيت، وقد رن الجرس كثيراً قبل أن ترد..

- ألو، نعم .

وسقطت توبتي بهذين الحرفين، هل يغدو السمع مرهفاً الى هذه الدرجة حين نسمع الشخص دون أن نراه، هل يغدو السمع حينئذٍ أكثر من سمع وبصر؟ هل يغدو بصيرة أيضاً؟ لأول مرة أدرك أن الصوت يمكن أن يحمل اليك الانوثة كلها، فإنك لا تسمع فحسب، بل ترى وتلمس وتشم أيضاً. تركتها تزيدني من هذه الـ(ألو) العذبة الرخيمة الغنجة، حتى كادت أن تغلق الخط فقلت..

- هلو جلنار..

وما أن عرفت محدثها حتى أنطلقت تتحدث بلهفة..

- الـف الحمـد والشـكر لـك يا رب.. وصـلت؟ الحمـد لله علـى السلامة.. آسفة تأخرت عليك لقد كنت بعيدة عن التلفون..
- لاعليك، شكراً، كيف أنتما؟
- بخير ما دمت أنت بخير سيدي.

- وسعدي كيف كان معك اليوم؟
- ماذا أقول يا سيد؟ صار شخصاً آخر، بات يدللني ، لوكان لي أب ما كان ليدافع عني كما فعلت يا سيدي، جزاك الله خيراً.
- أها.. ممتاز (فرحت كثيراً واطمأن قلبي فأردفت) إذن سلمي على سعدي، ولا تنسيا غلق الابواب والشبابيك والستائر ليلاً. هل تريدين أي شيء؟
- سلامتك فقط سيدنا.
- شكراً لكِ في أمان الله؟
- في أمان الله. لحظة، لحظة سيدي! هل ستعود غداً؟
- على الارجح نعم، الله معك
- الله معك يا..

ترددت ثم أسرعت بغلق الخط لتقمع كلمة ما. يا لخيالي الجامح الظمئ الذي يملأ الفراغات بما يشتهي، إذ لمَ لا تكون الكلمة المقطوعة (سيدي) أخرى؟ لا، لا.. لو كانت كذلك لما ترددت ثم ألقت السماعة من يدها بسرعة. حسناً ليكن، وماذا بعد؟ ثم ماذا بشأن توبتي؟ وقطع أبو عصام عليَّ حيرتي وتساؤلاتي..

- الغداء جاهز فهل نتغدى ثم نخرج أم تفضل أن تأخذ غفوة قصيرة قبل ذلك.

- أنا لم أنم البارحة بما يكفي، وقد صحوت اليوم فجراً كما تعلم، أظن أنني بحاجة لنصف ساعة فقط.. ما رأيك؟
- وهو كذلك، خذ راحتك إذن، أنا أيضاً سأقلب قيلولتي وأجعلها قبل الغداء.

وحين جلسنا الى مائدة الطعام العامرة بما لذ وطاب،رحبت بي السيدتان أم ميخا وشقيقته. ولاحظت أنني تميزت بصحن سمك أحيط بكل ما هو نباتي من سلطات وفواكه. فقلت ممازحاً..

- هل خصصتموني بهذا الطبق لتحرموني من غيره؟

ضحكوا ثلاثتهم ثم أوضح أبو عصام بقوله..

- كنا نسمع دائماً عبارة يقولها الاخوة المسلمون(كل عند اليهودي ونم عند المسيحي) ولما كبرنا فهمنا أن ذلك يعني أنكم لا تأكلون ذبيحتنا، وهذا لا يشمل السمك والخضار بطبيعة الحال، فوضعنا أمامك الاطباق غير المحظورة.
- هكذا إذن، وأنا عقوبة لك يا أبا عصام سوف لا آكل إلا من أكلكم واليك حكمتي المعدلة الخاصة(كل ونم عند الناس الطيبين أياً كان دينهم)

أكلنا وشربنا وضحكنا من قلوبنا، ثم شكرت سيدة البيت على لذة طعامها، وحين خرجنا كانت الساعة تشير الى الثالثة عصراً، وفي طريقنا الى بيت أم يوسف، حدثني أبو عصام عن أهل المدينة وبعض

عاداتهم وأشهر مأكولاتهم ثم سألني إن كنت أعرف اللحم الذي أكلته فقلت ساخراً..

- هل أريد أن أصاهره مثلاً؟ يكفيني أنه لذيذ وصحي، أي طعام حظي بهذه الشروط آكله وبخلافها لا أذوقه بصرف النظر عما يقوله الاخرون، مع كل الاحترام لهم، أنا حر فيما آكل كما أنهم أحرار فيما يأكلون .
- حتى لوقلت لك أنه مذبوح على الطريقة الألقوشية؟

قال ذلك مازحاً وضحك فضحكت وقلت..

- ما دمت أنت تأكل المذبوح على طريقتي، ما الذي ينقصني حتى لا أكل المذبوح على طريقتك؟
- كل بالهناء والشفاء، الف عافية.
- الله يعافيك، وأخيراً، ها هي الكنيسة ، أراهنك أن بوسعي الآن أن أصل الى بيت أم يوسف لوحدي.
- جرب إذن..

تركني أمشي أمامه وتبعني فما لبثت أن وصلت الى الباب والتفت اليه قبل أن أطرق، فهز رأسه بالنفي يعني أنه ليس الباب الصح ، لكنه اقترب مني وطرقه مبتسماً وقال..

- ها قد صرت القوشياً أصيلاً، فقد عرفتك أزقتها.

فتحت السيدة الباب وفوجئت بزيارتنا فعبرت عن سرورها، ورشمت شارة الصليب، وهي تفسح لنا في المدخل الضيق لنمر الى الصالة

حيث اتخذت نفس جلستي في المرة السابقة، ولم يتغير شيء في المكان باستثناء صورة أخرى موشحة بالسواد وضعت الى جانب الاولى، وحين لاحظ صديقي أنني أتأمل الصورتين قال..

- هل رأيت الشبه العجيب بينكما؟
- كأننا توأمان.
- لذلك كان يوسف ينتظر إطلالتك كل خميس، وحين تبدو خلف الزجاج يهتف جاء أبي ويسبقك لفتح الباب.
- ليتني كنت أعلم.

قلت ذلك بأسى فيما كانت السيدة تمد يدها بأقداح الماء والشاي وتقول..

- لا أدري ياسيد يوسف كيف يمكنني أن أجازيك على معروفك.
- لقد استوفيت حقي سعادةً حين علمت أنك بخير، يُعتقد أن السعادة في ما نجني من الخيرات والحق أنها تكمن في ما نعطي منها.
- يالها من رؤية مدهشة(قال أبو عصام وهو ينظر الي بإعجاب وكأنه يريد أن يقول لمضيفتنا أرأيت صديقي)

تمتمت السيدة بالسريانية ورشمت شارة الصليب ثانية وعادت ترشف شايها وتنظر الى صورة يوسف بفخر كأنها تقول، لقد أحسنت تربيتك يابني فعرفت كيف تترك كل هذا الاثر الطيب في النفوس.

وبعد أن فرغنا من شرب الشاي نهضنا ومددت يدي أصافحها وأضع فيها بعض المال فكانت تمانع فصررت كفها عليه وقلت ..

- لا تحرميني هذه السعادة بالله عليك سيدتي.

ولم تحر جواباً غير أن تمتمت بالدعاء، ثم ودعتنا عند الباب وهي تلهج بلغة ربها. وفي طريق العودة هتف ابوعصام بشاب كان يقف على مقربة من باب الكنيسة، ووقفا يتحادثان فتشاغلت عنهما بالواجهة الحجرية التي تعلو بوابتها وقد نقش عليها بالسريانية والعربية (كنيسة القديس مار كوركيس)قبل أن يلتفت الي أبوعصام..

- هذا زياد يا سيد يوسف، صحيح أنه شاب ولكنه يعرف عن ألقوش أكثر مما يعرف الشيوخ ومدير الناحية والمختار مجتمعين(ثم أردف موجهاً كلامه الى الشاب بحماس دون أن ينتظر ردي) هيا زياد! كما اتفقنا أريدك أن تجعله يقع في غرام القوش.
- حاضر أنا بخدمتكما، ولنبدأ من هذه الكنيسة، إنها واحدة من العديد من المعالم الدينية العريقة في البلدة التي تضم كنائساً وأديرة وأضرحة مقدسة وآثار تعود الى عصور الامبراطورية الاشورية..

وراح يتحدث بثقة ولباقة كأنه يقرأ في كتاب وهو يطوف بنا في أرجاء الكنيسة ويلقي التحية على من يصادفنا من رجال الدين ويعرفنا عليهم قبل أن نخرج ويقودنا الى كنيسة أخرى نقش على واجهتها الحجرية،

بالعربية والسريانية، كنيسة القديس مار ميخا. تحدث عنها كما فعل مع الاولى وقاطعه السيد ميخا قائلاً أنه سمي نسبة الى القديس مار ميخا، فلم يلتفت لملاحظته وواصل حديثة كأستاذ يعلم تلاميذه بجد وصرامة، ثم أوصلنا الى بناية عتيقة هي المدرسة التابعة للكنيسة والتي درس بها كل أعلام ألقوش منذ مئات السنين وأعاد ابو عصام الكرة فقاطعه قائلاً أنه درس بها أيضاً، وحدجه زياد بعينه بنفاذ صبر وأردف وهو يقطع بنا الازقة صعوداً الى بناء عتيق تداعت أركانه يتوسطه ضريح مغطى بقماش أخضر وقال أنه النبي ناحوم الالقوشي، له سفر في العهد القديم تنبأ فيه بخراب نينوى في القرن السادس قبل الميلاد، ويعد واحداً من أهم المعالم اليهودية في العراق التي تحظى بالزيارة في أوقات معلومة، وفي تلك الاثناء رأيت لافتة حجرية عليها نقش باللغة العبرية، سألته عنه فقرأه لنا، فانتهزت الفرصة حينئذٍ وهتفت مسروراً.

- كنت أبحث عنك في السماء فوجدتك على الارض.

فرد وقد فهم أن لي طلباً ما..

- بخدمتك سيدي.
- أريدك أن تكتب لي الابجدية العبرية وما يقابلها بالعربية، ممكن ؟

واتجه، دون أن يرد، صوب دكان صغير طلب ورقة وقلم كتبها بسرعة ودفعها لي فأخذتها شاكرا، ثم سأل..

- بأي لون تغطى أضرحة الاولياء عندكم يا سيد يوسف؟

- بالأخضر.

فهتف كأنه أكتشف شيئاً،

- إذن ما كنت أقوله صحيح، الكل يغطون أضرحتهم المقدسة باللون الاخضر لأن خضرة النبات ترمز للحياة، فهم يريدون أن يقولوا أن صاحب هذا القبر حي عند الرب لم يمت.
- نعم أنت على حق.

وفي تلك الاثناء مرت سيارة فاستوقفها زياد وانحنى يحدث السائق ثم سرعان ما اشار الينا بالصعود، وفي الطريق الى دير سيدة الزروع الذي يبعد نحو الفي متر عن المدينة استعرض زياد أقوال المؤرخين بشأن أصل إسم القوش ثم أضاف..

- أنا أظن انها جميعا جانبت الصواب، وسأثبت لكما ذلك حالاً..

وما أن ترجلنا من السيارة توسطنا زياد موجهاً أنظارنا صوب الجبل وقال مشيراً اليه..

- هل ترون الجبل كيف يتخذ شكل قوس يحتضن المدينة من وسط السفح الى أسفل السهل المنبسط مثل كفٍّ تحمل المدينة على راحتها.. الامر ببساطة أنه سمي كذلك بسبب شكله ومنه أخذت المدينة اسمها أيضاً.. وبالمناسبة فإن(إل) ليست أداة التعريف هنا بل تعني الاله وقد كانوا يؤلهون الجبال من بين

أشياء كثيرة، ومن ثم فألقوش تعني(إله جبل القوس) هذا كل ما في الامر برأيي ما رأيك يا سيد يوسف؟

- أوافقك الرأي، إذ أن تفسيرك مقارنة بما ذكرت من آراء يبدو لي أقرب الى الواقع، نعم إنه بسبب شكل الجبل، الا ترى يا أباعصام إنه واضح جداً.
- ألم أقل لك إنه يعرف ما لا يعرفون (علق السيد ميخا ضاحكاً وأردف) ولكن كيف اهتديت الى هذا التفسير؟
- لأنني كثيراً ما أخرج بمفردي في الحقول وأنظر الى المدينة من بعيد وأفكر باشياء كثيرة كان هذا أحدها.

قال ذلك وهو يقتادنا الى بوابة حجرية نقش عليها اسم الدير بالعربية والسريانية، وراح يروي لنا تاريخه وسبب تسميته ويتحدث عن تماثيل القديسين ورجال الدين فيه، ويطوف بنا من رواق الى رواق ومن فناء الى آخر، حتى التقى أبو عصام براهب بدا أنه مقرب منه فأسر اليه بأمر ثم واصلنا جولتنا، وفي الختام، وفيما كنا نخرج لحق بنا الكاهن ودفع لأبي عصام كيساً ورقياً، فشكره وطلب الى السائق أن يفتح صندوق السيارة حيث وضعه فيه وانطلقنا الى دير الربان هرمزد بطريق راحت التواءاته تتزايد كلما ارتفعنا حتى غدا يتلوى مثل أفعى وانتهى الى ساحة تقف عندها السيارات ومنها أكملنا صعودنا مشياً الى الدير الذي أسسه القديس ربان هرمزد عام٦٢٠م كما قال دليلنا، بدا معلقاً بين الارض والسماء على حافة هاوية الجبل، في موضع عصي على

الاقتحام، لذلك كان يتعرض الى الحصار من قبل الامراء المسلمين المحليين حيناً والولاة العثمانيين أحياناً أخرى، لم يكن بوسعي أن أصعد ذلك السلم الحجري الطويل بنفس واحد، فقطعته باستراحتين، قبل أن نبلغ الباحة الخارجية للدير، ثم دلفنا عبر دهليز ضيق، ثبتت بجداره الحجري سلسلة تنتهي بطوق حديدي، يضعه المؤمنون في أعناقهم رمزاً للوفاء للقديس المؤسس ولطلب الشفاء، وقد أدخلت به رأسي كما فعل صاحبيَّ، وسمعت أحد الزوار يقول أن الزنادقة والمهرطقين لا يمكنهم الفكاك من ربقته. ثم مررنا بصوامع الكهنة الحجرية الضيقة والكهوف التي يعتكفون بها طول العمر. وسمعنا عن الكثير من المعجزات التي حدثت في الدير طوال تاريخه، ورأينا بعض الايقونات التي تصور تلك المعاجز، لقد أمضينا هناك نحو ساعة مفعمة بجو روحاني لم أختبره من قبل، ثم عدنا أدراجنا هبوطاً وقد مالت الشمس للمغيب ومازال أمامنا الكثير من المعالم التاريخية المهمة كما قال زياد ، وقد أقترح أبو عصام أن نؤجل زيارتها الى صباح الغد قبيل انطلاقنا الى بغداد، وقد وافقته الرأي قائلاً يمكننا أن نعدها رياضة صباحية، وقال زياد أنه سيكون بانتظارنا صباحاً وبعد الانتهاء من الجولة ليواصل معنا الطريق الى تلكيف، حيث يتابع معاملة له هناك. وحين وصلنا الى السيارة، كان السائق مايزال متكئاً عليها بانتظارنا، فطلب منه زياد أن يأخذنا عبر السوق، وفي الطريق الى هناك أوضح زياد أن هذا السوق

كان دائماً قلب المدينة النابض بالحياة وملتقى أهلها وخاصة الشباب، وأضاف أبو عصام..

- ولاتنسَ أن من معالمه جايخانة(*) بتي دكالي التي أقترح أن نعدل رؤوسنا باستكان شاي منها.

وبعد دقائق كنا جلوساً في تلك الجايخانة نرتشف شاياً يعدل الرؤوس فعلاً كما وصفه أبو عصام، وكانت المقهى تطل على ميدان يمثل تقاطع طرق البلدة الرئيسية، يتوسطه عمود نور يحتشد تحته جمع من الشباب في مرح وجدال وضحك بلا انقطاع، وعلق أبوعصام حين رآني أحدق بهم.

- كلنا مررنا بمرحلة هذا التجمع، لم يكن يمنعنا منه حر ولا برد، ولا سحب الحشرات التي تحوم حول المصباح بلا انقطاع وتضايقنا في ليالي الصيف الحارة، لا شيء كان يحول دون مسامراتنا الى وقت متأخر من الليل.

واستأذن زياد ليلتحق بأترابه تحت العمود..

- الى اللقاء غداً في الصباح الباكر، سأكون بانتظاركم، تصبحون على خير.

وأوصلنا السائق الى البيت وأخذ أجرته وذهب بعد أن فتح الصندوق وأنزل الكيس الورقي الذي كانت به زجاجتان من نبيذ الدير المعتق،

(*) مقهى من الفارسية بمعنى مكان شرب الجاي أي الشاي.

نقله أبو عصام الى صندوق الشفروليه مباشرة قائلاً

- هذه هدية القوش لك يا سيد يوسف.

شكرته ثم جلسنا نأكل ونشرب ونمرح تحت شجرة رمان عتيقة تتوسط فناء الدار الواسع الذي تطل عليه نوافذ وأبواب الغرف، وتزين أصص الزهور درجات سلمه الحجري وأعمدة أروقته، في منظر يبعث على الدفء والالفة، وأخذنا الحديث الى طراز البيوت القديمة في المدينة، فحدثني عن قصر يقع في الشارع الموازي لشارعهم ويقع خلفه، وعدني أن نمر ببابه غداً قبل سفرنا، وذكر أنه يعود لأسرة بولا التي كانت تسكن بلدة سميل، قبل أن يزورهم والي العمادية ذات يوم، ويلفت نظره جمال شقيقة المطران خنانيشوع بن اسحق بولا، فيطلب يدها على الفور متجاهلاً الاختلاف الديني بينهما، ولم يرد المطران عليه بيد أن الفتاة وكان اسمها شازادابادينا، قدمت للوالي آنية فيها بيض ملون، وراحت تناوله الواحدة تلو الاخرى وهو يقشر ويأكل من يدها مسحور بجمالها، ثم سألته أيها أعجبه طعمها أكثر من سواها، فقال أن لها الطعم نفسه، فقالت هكذا نحن البنات يا جناب الوالي لنا نفس الطعم رغم اختلاف المظهر الخارجي، فلماذا اخترتني أنا بالذات من بين كل بنات العمادية؟ ففهم أن طلبه مرفوض وخرج في الحال غاضباً، وفي اليوم التالي هجم زبانيته على بيت المطران فقتلوه وربطوا رجليه ببغلين سحلاه في أزقة البلدة، حتى تقطع إرباً، ولم ينجُ من العائلة المنكوبة غير شقيقه بطرس بن اسحق بولا وشقيقته ففروا الى القوش، حيث بنوا هذا

القصر الذي سنراه غداً. وتحدث عن المظالم التي كان يتعرض لها المسيحيون على يد المتطرفين من الولاة والامراء المسلمين من كل الاعراق..

وتسامرنا فلم نترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأخذنا بطرف منها، حتى دب النعاس فينا وأوى كل منا الى سريره، واستأذنت أبا عصام أن أجري اتصالاً أخيراً لأطمئن على أهل بيتي .وما كاد الجرس يرن حتى لقفت السماعة وردت..

- الو ..

فضحكت وقلت ..

- هل كنت تتوسدين التلفون؟

فضحكت قائلةً..

- قررت أن أنام على الاريكة في الصالة تحسباً لاتصالك في أية لحظة.
- في الصالة ؟لا لا الصالة باردة، يمكنك أن تنامي على سريري فهناك تلفون أيضاً.

صمتت وسمعت بصمتها بوح تعجز عنه الكلمات، وفي تلك الاثناء سمعت أخت السيد ميخا تهتف بالسريانية بصوت عال إذ يبدو أنهما بعيدان عن بعضهما، حينئذٍ قطعت جلنار صمتها بالقول..

- من هذه التي كلمتك الان؟
- هاهاها..ماشاء الله على سمعك؟

- من تكون؟

سألت بإصرار متجاهلة تعليقي الساخر، فتجاهلت بدوري سؤالها لأنني أحببت اللعبة، وقلت..

- لاعليك، فقط اسمعي كلامي ونامي في غرفتي.. اتفقنا؟
- لن أموت إذا بت في الصالة ، ولكن من هي؟

فخفضت صوتي وأفهمتها إنها أخت أبي عصام كانت تناديه، فلم تقل شيئاً، فكررت ..

- ألو ألو جلنار..
- نعم.
- لمَ لا تردين؟
- لا شيء. أين ستبيت؟
- في بيت أبي عصام طبعا.
- وحدك؟
- طبعاً وحدي ،في غرفة الضيوف هذه، مالك تسألين أسئلة بلا معنى؟ هل أنت خائفة؟
- لا، ولكن البيت موحش، هل يمكن أن أتصل بك بأي وقت؟
- عند الضرورة فقط، حتى لايزعجهم رنين الهاتف. يمكنك إذا شئتِ أن تنامي في سريرك، فقد تكون غرفتي موحشة أيضاً، ثم أنني لن أتصل بعد.
- لا فرق، الليلة كل مكان موحش.

- أين سعدي؟
- إنه في البيت الصغير هل أناديه لك؟
- لا، أردت الاطمئنان الى أنه موجود معك في البيت. هل خرجتِ اليوم؟
- أبداً.
- طيب، الى غرفتي حالاً. تصبحين على خير.
- حاضر، وأنت من أهله.

دخلت مضيفتي في تلك الاثناء تقول أن أبا عصام جاء فوجدني ما زلت مشغولاً بالاتصال فذهب لينام.

- ماذا أراد؟
- أظنه جاء ليسأل إن كنت بحاجة لشيء، ويقول أنه سيوقظك قبل السادسة.
- حسناً شكراً لا ينقصني أي شيء. سأنام حالاً.
- طيب تصبح على خير.
- وأنتم من أهله.

وما كادت مضيفتي تذهب حتى رن الهاتف فخطفت السماعة بسرعة كي لا يطول رنينه، وقلت همساً.

- نعم.
- ألم تقل أنك وحدك؟
- أكيد.

- ولكنني سمعت من كلمك مع قطع الاتصال.
- كانت أخت أبي عصام تسأل إن كنت بحاجة لشيء؟
- وهل ينقصك شيء؟
- لا، كل شيء تمام.
- هل غرفتك دافئة؟ تدفأ جيداً فأنت في الشمال لا في بغداد. هل ستعود صباحاً؟
- لا ينقصني شيء.. وغرفتي دافئة.. وسأعود صباحاً، أنت اطمئني فقط، واخلدي للنوم، هل أنت في سريري الان .
- نعم، أعتذر يا سيدي، لابد أنني تجاوزت حدودي اليوم. وكانت اسئلتي مملة.
- كلا، لم تفعلي الا كل خير، أنا آسف لأنني لا أكون على سجيتي خارج بيتي. خذي راحتك، في أمان الله.
- في أمان الله، ترجع بالسلامة .

الفصل السابع عشر

زهر الرمان

كعادتي حين يتغير مكان نومي، أمضيت ليلتي اليتيمة في القوش بين كوابيس وأحلام نوم ويقظة، فتارة أسمع حوافر بغال تنقر الارض الحجرية يتبعها صوت جسد يجر بالحبال ويتقلب فيتقطع أشلاءً. وتارة أخرى أسمع جرس هاتف يصم رنينه الاذان ثم يستحيل عويلاً، ثم أحظى باستراحة قصيرة مع كفٍّ لدنة وصوتٍ رخيم يقول؛ الله معك يا حبيبي.. وفارس يترجل من جواده الأبيض ليقدم لي كأس نبيذ أحمر. خليط غير متجانس، لم يخرجني من خيره وشره غير صوت أبي عصام يكرر..

- سيد يوسف استيقظ إنها السادسة.

شكرت مضيفتي وحملتها التحية لوالدتها التي ماتزال نائمة، وأردفت متردداً.

- ست صباح، هل يمكن أن أكلفك بأمر كان ينبغي أن أتمه بنفسي لكن الوقت سرقنا.
- أكيد سيد مادام بوسعي أن أفعل.
- هل تعدينني أن تفعلي كما لوكنت شقيقك؟

- طبعاً.
- أريدك أن تشتري نيابة عني بهذا المبلغ البسيط هديتين وتقدمينهما باسمي لأمي وأختي.

وأعطيتها خمسين دينارا وقلت في أمان الله، متجهاً صوب السيارة بسرعة حتى لا اسمع شكراً أو اعتراضاً، وبينما كانت تستوعب المفاجأة وتلحق به لتردها، ضحك أبو عصام قائلاً..

- لا تحاولي صباح هذه هي طريقة سيد يوسف ليكون سعيداً، ويبدو أن نبيذك راقه.

فقلت وأنا أستقل السيارة وأوشك أن أصفق بابها..

- بل كل شيءٍ راقني .

وبينما كانت الشفروليه تنعطف صوب الشارع الموازي قال أبوعصام..

- أشكرك من قلبي نيابة عنهما، ولكن ما كان عليك أن تفعل ذلك.
- أنا أشكركم جميعاً على كل شيء، لقد عاملتموني كفرد من العائلة، وغمرتموني بلطفكم وكرمكم.

وما لبثنا أن توقفنا أمام بوابة خشبية مزخرفة بنجوم نحاسية تعلوا قوسها الحجري نقوش ناتئة بالسريانية يتوسطها نحت شجرة تمثل أسرة بولا، أصحاب القصر، تقف فوقها حمامة ترمز للسلام، تحف بها من الجانبين حيتان ترمزان للحكمة، ونمران يمثلان القوة وقال أبو عصام..

- هذا هو القصر الذي حدثتك عنه أمس، وتلك الكلمات تقول(ليحفظ الرب الدار وأهلها) لا يمكننا للأسف أن نراه من الداخل بطبيعة الحال فمازال مأهولاً بآخر من بقي في ألقوش من أسرة بولا، ولكن يمكن أن أجمل لك شكله الداخلي بفناء واسع يحيط به إيوان تحت أعمدة حجرية كثيرة، وتطل عليه أبواب وشبابيك أكثر من ثلاثين غرفة.

اجتزنا منعرجين قبل أن نرى زياد يقف في نهاية الزقاق بانتظارنا يتأبط ملفاً من تلك التي تقدم بها المعاملات الرسمية عادة، أخذ مقعده خلفنا وأغلق الباب قائلاً..

- صباح الخير(وأردف بسرعة) إرجع الى الخلف يا أبا عصام وانعطف عند ناصية الشارع، إذا كنتما تريدان أن تتما جولتكما كما اتفقنا البارحة.

وكاد أبو عصام أن يفعل ولكنني قلت بسرعة..

- لا يا جماعة، أقترح أن نترك ذلك لفرصة أخرى فالطريق أمامنا طويل.
- أوافقك الرأي.

قال أبو عصام ذلك بارتياح وانطلق يجتاز الازقة هبوطاً باتجاه الجنوب، كذلك عبر زياد عن ارتياحه لأن بانتظاره معاملة متعبة في دائرة الاحوال المدنية كما قال ثم أعرب عن استعداده ليكون دليلنا السياحي في أي وقت نشاء. وبعد نصف ساعة من الصمت انكفأ خلالها كل

منا فيما ينتظره وصلنا تلكيف وودعنا زياد، وواصلنا سيرنا نحو بغداد، وقد بدا لي طريق الاياب طويلاً ومملاً بخلاف طريق الذهاب، وكان أبو عصام صامتاً معظم الوقت حتى قطعت عليه صمته..

- هل تشعر مثلي أن طريق العودة أطول ؟
- هذه مسألة نسبية كما تعلم ياصديقي، أنا مثلاً، أراه عكس ماتراه، لاشك أن ذلك يعود الى شعور الانسان تجاه المكان الذي يقصده، أنا مثلاً كلما سافرت الى ألقوش بدا لي الطريق طويلاً لأنني متحمس للوصول الى مرتع طفولتي وذكرياتي الثمينة، لا أطيق الانتظار، في حين أن بغداد تمثل لي العمل والمسؤوليات الجسيمة رغم أنني مشتاق لعائلتي بطبيعة الحال، الفرق بينهما عندي كالفرق بين العقل والعاطفة. والله ياصديقي لولا لقمة العيش لما فارقت القوش يوماً واحداً.
- أنت على حق أنا أشعر بالعكس، فإن روحي في بغداد، رغم أنني أحببت ألقوش كثيراً فهي مدينة تحتضن زائرها بألفة ومحبة دافئة. ولا أكتمك سراً أنني فكرت أن أمضي ما بقي من العمر في أحضان هذا الهدوء والجمال والبساطة.

ضحك أبو عصام وهو يرد..

- للأسف يا صديقي لا سبيل لتحقيق ذلك؟
- لماذا؟

- صحيح أن القوش كما قلت، تغمر زائرها بالمحبة، ولكن بشرط أن يظل زائراً ولا يطول به المقام أكثر، لذلك سوف لن تجد من يبيعك بيتاً أو يؤجر لك منزلاً.
- سوف أجد من يزكيني عند أهلها،أنت، زياد، أم يوسف.
- مستحيل يا صديقي، ولا تحسب أن الامر يتعلق بالدين، فحتى لو كنت مسيحياً ليس لك فرصة للسكن في المدينة ما لم تكن من أصل ألقوشي.
- عجيب.
- فعلا ولكن هذه هي الحقيقة.

وآثر كل منا الصمت بعد ذلك، هو ربما يفكر بالعمل الذي ينتظره، في حين كنت استعيد اتصالي بجلنار البارحة متسائلاً، هل شعرت بالغيرة؟ هل تحبني حقاً؟ هل تماديت مجدداً وخسرت توبتي؟ هل يعقل أنني وقعت تحت سطوة الحب؟ وفكرت أنها هي نسيت نفسها وتمادت أيضاً. واعترفت أخيراً أنني اشتقت اليها، نعم هذا ما لا يسعني إنكاره. صحيح أنهما غيرا حياتي، فقد تقلصت الاشباح والهلاوس الى حد جعلني أستغني عن جلسات الطبيب النفسي فعلاً، بعد أن كنت قد تركته عناداً وتمرداً، لكنني شعرت بعدم الرضا عما فعلته البارحة وقررت أن أعود الى توبتي، وأكرس الايام التالية لفك رموز الدفتر الغامض قبل أن أضع اللمسات الاخيرة على كتابي وأدفعه الى المطبعة.

وقطع وصولنا الى مدخل بغداد تأملاتي فقطعت على صاحبي أفكاره بالقول..

- ما هو برنامجك لما بقي من النهار؟
- بعد أن أوصلك الى الكرادة سأتجه الى الحانة لأطمئن على سير العمل ثم أذهب الى البيت لأتغدى وآخذ قيلولة أخرج بعدها الى الشغل ثانية، لقد كانت سفرتنا استراحة ممتعة من دوار الحياة، أشعر بالأسى لسرعة انقضائها.
- فعلاً، ويبدو أنني كنت بأمس الحاجة لها، آمل أن تتكرر. طيب ما رأيك أن نختمها بالغداء معاً، سيسران برؤيتك.
- لا ياصديقي، بقلبي نار على متابعة العمل،لا أدري كيف سارت الامور بغيابي، كما أنني اشتقت للعودة للبيت. أشكرك، وابلغ تحياتي لهما، القادمات أكثر.
- حسناً كما تشاء.

أوصلني أبو عصام الى باب البيت وانطلق لشأنه، وآثرت أن أقرع الجرس قبل أن أفتح الباب الخارجي، ولكنني ما أن فتحته حتى أطلت جلنار من الباب الداخلي كما لو كانت تنتظر خلفه، ثم هرعت الي بلهفة ..

- الحمد لله على السلامة. سفرة سعيدة.
- الله يسلمك .

كانت أمي تقول أن للبنات سبعة وجوه، الان فهمت تماماً ما كانت تعنيه، ولعل هذا هو الوجه السابع لجلنار الذي لم أره من قبل،

فقد كانت رائعة الجمال بفستان أبيض مزين بزهور الرمان الصغيرة الحمراء، يشد عند الصدر نهديها النافرين، ويضيق عند الخصر، حيث تمتد طيات طولية كُوِيتْ بعناية، الى حافته السفلى المكشكشة، المطرزة بشريط من الدانتيلا يهفهف على ربلة ساقها الناعمة، ويشف عن لون بشرتها الموجعة، هل تعرف جلنار أن اسمها يعني زهر الرمان أم أنها اختارت فستانها صدفة؟ لا أدري لكن الذي أنا متأكد منه أنه أبرز فتنتها، وكان من طراز فساتين الستينيات المفعمة بالرومانسية والأناقة والرقة، وكانت تنتعل خفاً منزلياً أبيض ليمامتي قدميها الصغيرتين، وقد بدت فيه أظافرها المزينة باللون الأحمر كبعض زهور الفستان وقد تناثرت على قدميها، وعقصت شعرها الى أعلى بشريط أحمر تركته ينسدل الى الخلف مع شلال شعرها العسلي الذي يداعب طرفه الردفين. كانت لوحة مائية معبرة وساحرة، ارتجفت شفتاها المكتنزتان بابتسامة عذبة وهي تجدد القول..

- الف الحمد لله على سلامتك.

ومجدداً كان للكاف الثمينة الجامحة العارية، وقع الندى البارد على جمرة قلبي، وقد خشيت منها على جداري المقدس، فسارعت الى التواري خلف جفائي المصطنع وكررت بطريقة ببغائية؛

- الله يسلمك .

هكذا بلا حياة، بلا أدنى قدر من الذوق، كل ذلك من أجل هذا الجدار الملعون الذي أدركت فيما بعد أنه لا يعلو على كعب خفها

الأبيض. وقد عزمت على أن أعيد الامور الى ما حسبته نصابها، بعد التهور الذي وقعت به ليلة البارحة حين تمادت هي الاخرى، وكان لي ما أردت، فقد أيقظتها من الحلم الجميل الذي كانت ترفل فيه قبل قدومي المشؤوم، وسرعان ما ذوت الابتسامة على شفتيها وحلت محلها خيبة ووجوم ، وردت بجفاء يمور تحته غضب مكتوم..

- تفضلوا سيدنا.

وبذلك يكون الكلام قد عاد خشبياً كما أستحقه، كلام كأنه يحكي عن غيرنا، ثم أردف غضبها الحبيس..

- هل أضع لكم الغداء في المكتب؟
- ليس الان.

ولم أزدها حرفاً بل القيت حقيبتي الصغيرة وسط الصالة، وأعطيتها كيس الزجاجتين..

- ضعيهما في السرداب.

ودخلت الى غرفة المكتب يشغلني الحماس لمعرفة ما في الدفتر المجهول من أسرار، ثم أطلت جلنار تريد جواباً يريحها في وقت لم يكن مناسباً بحيث تلقت ما زادها ألماً على ألم..

- هل أغضبتك بشيء سيدي ؟
- لا، لم تظنين ذلك.
- بدوت غير راضٍ حين رأيتني أول مرة، هل بسبب ملابسي؟

- ملابسك؟ (وأطلقت ضحكة صفراء باهتة سخيفة، ثم أردفت لأزيد الطين بلة) لا طبعاً، أنا متعب ولدي ما يشغلني عن ملابسك، إسمعي جلنار! افتحي الخزانة القديمة التي في العلية، ستجدين دفتراً له غلاف أزرق هاتيه بسرعة.

ذهبت وهي تتميز غيظاً فقد قسوت عليها كثيراً، والحق أنني قسوت على نفسي أيضاً لكن ذلك شأني أما هي فما ذنبها، تساءلت بغباء قبل أن تعود بالدفتر، همت أن تقول شيئاً لكنها أحجمت وأدارت وجهها وذهبت بصمت.

آه يا إلهي لكم تمنيت أن آخذها بأحضاني وأمطرها قبلاً وأقول لها أنني اشتقت اليها كثيراً، وأعبر لها عن إعجابي بها وبفستانها وخفها ، وأسألها إن كانت تعرف أن اسمها يطابق فستانها وتمنيت أن أعرف كم كانت غيرتها حين سمعت صوت امرأة في غرفتي البارحة، فقد تكون بكت وقد تبكي الان أيضاً فتبكيني وأغمرها حباً، آه يا إلهي ماذا بوسعي أن أفعل بحبٍ لا مستقبل له، لا يمكنني إلا أن أواصل جفوتي حتى نعتاد كلانا على ذلك، ويذهب كل منا في طريقه الذي قدر له أن لا يلتقي بطريق الآخر.

وضعت أمامي قائمة الحروف الاثنين وعشرين التي كتبها لي زياد وأشار بينها لخمسة حروف تكتب حين تكون في نهاية الكلمة بشكل مختلف. وشرعت أعوض عن حروف الدفتر بما يقابلها في العربية حرفاً

حرفاً، وإذا بالحياة تدب بالحروف الصماء، فتنطق بكلام بدا أول وهلة مبهماً ثم غدا يفسر بعضه بعضاً.

بدت الصفحة الاولى مثل مناجاة ابنة مكلومة لروح امها المتوفاة، ديباجة لا تتضمن شيئاً ذا بال، حتى لقد شعرت بعدها بالملل وخشيت أن تكون الصفحات الاخرى على شاكلتها، الامر الذي قد لا يستحق كل هذا العناء، أو على الاقل ليس بهذه العجلة، فأرجأت قراءة ما بعدها الى حين. وارتميت على الاريكة الجلدية السوداء العارية وغفوت، وحين صحوت عصراً وجدت تحت رأسي وسادة، وكان حذائي منزوعاً من قدمي، من سواها تفعل ذلك؟ لأول مرة منذ أكثر من عشرين عاماً، حينما كنت كثيراً ما أعود من الخارج وأرتمي هكذا، تملكني شعور مرير بالذنب، إذ أنني مازلت أعبث بقلبها الطيب. ورغم أنني شعرت بالخواء من شدة الجوع، لكنني لم أشأ أن أدعوها لتعد لي الغداء، وآثرت أن أدخل الى المطبخ بحثاً عما آكله، فوجدتها هناك غافية على الكرسي، وقد أسندت رأسها على ذراعيها فوق مائدة الطعام تاركة أمامها صحناً من مخلوط الارز والمرق دون ان تمسه، وقفت أتأملها ثم دنوت منها وأردت أن أضع يدي على رأسها لكنني تجمدت في مكاني فقد رفعت رأسها فجأة ونظرت الي بعينين ساهمتين مغرورقتين بالدمع لكنها لم ترني إذ ما لبثت ان ألقت راسها على ذراعيها ثانية واستسلمت للنوم، خرجت على أطراف أصابعي فهي لم تكن قد صحت بل تحركت في نومها وربما كانت غارقة بحلم حزين، يا لهذا

الحجر الذي بين الضلوع، لا يصلح لغير بناء الجدران، لاشك أنها أمضت ليلتها مع أحلام اليقظة ترسم لعودتي اجمل لقاء، لعلها غسلت الفستان القديم ورممته وكوت طياته بعناية لتجعله جديرا بلقائنا، لكنها لم تحظَ من ذلك كله بغير الخيبة والخذلان والتجاهل، لم لا أعاملها بلطفٍ كابنة أوخادمة حتى؟ لم لا أجد حلاً وسطاً بين الحب والقسوة؟ لابد أنني أخشى أن ينقلب أقل قدر من اللطف فجأة الى حب جارفٍ لا يبقي ولا يذر، ربما لأن قلبي يكاد يموت ضمأً للحب، لذلك لا يحسن أن يتروى بهدوء، بل يرتمي على السراب كالمجنون، ولكن ما ذنب هذه الفتاة المسكينة لتدفع ثمن جنوني وعقدي؟ تملكني صراع داخلي مرير، لم ينقذني منه غير اللجوء الى النوم طاوياً، ولم أصحُ الا عند الغروب وهو الوقت الذي تنقبض فيه نفسي، ويتمكن مني التشاؤم، خرجت الى الشرفة، وما أن جلست حتى فتحت بابها واتجهت صوبي مباشرة، كما لو أنها كانت خلف النافذة تنتظر جلوسي هنا فهي تعلم أن الشرفة ملجأي الوحيد في مثل هذا الوقت. وقفت تحت وسألتني..

- أنت لم تأكل شيئاً منذ أن وصلت، هل أنت بخير سيدي؟ هل أعد لك الطعام؟
- نعم شكراً لك.
- أراك حزيناً يا سيدي، هل حصل في القوش ما سبب لك كل هذا الحزن؟
- كلا ، لا شيء، إنها كآبة الغروب فقط.

- سلامتك سيدي، لا تبارح مكانك سآتيك بالطعام الى الشرفة حالاً.
- حسناً شكراً.

وما لبثت أن عادت بصينية عامرة وضعتها على الطاولة أمامي وسألت إن كنت أريد أي شيء آخر، فسألتها عن سعدي ..

- إنه في الحديقة الخلفية، انتهز موسم الربيع وأتي ببعض النباتات من المشتل قبل قليل.
- هل تغديتما ؟
- نعم.
- مع بعض؟
- لا، هو سبقني الى الاكل.
- وانت؟ رأيتك نائمة في المطبخ وأمامك صحن لم تذوقي منه شيئاً.
- أكلت حين صحوت .
- أنت خلعتِ الحذاء من قدمي ووضعت وسادة تحت رأسي؟
- نعم سيدي.
- جلنار، بالله عليك لا تعتني بي لهذه الدرجة، ممكن؟
- ولكنك تعتني بي يا سيدي بنحو لم أحظ به في حياتي، فاعذرني لأنني لا يمكن الا أن أكون وفية .
- ولكنني يا جلنار لا أستطيع أن ..أعني لا يمكنني ..أن..

ولم أستطع أن أتم كلامي ويبدو أنها فهمت ما أرمي اليه فقالت ..

- ماذا تريدني أن أفعل يا سيدي؟
- لا تفعلي أي شيء إلا ما أطلبه منك، حتى لو رأيتني أحترق لا تطفئيني مالم أطلب ذلك منك، ممكن؟
- صعب والله يا سيدي، ولكن مادامت هذه رغبتك فإنني سأبذل جهدي لتلبيتها، وأخشى ما أخشاه أن أنسى نفسي أحياناً وأتصرف على سجيتي. ولكن أنت أيضاً يا سيدي لا تغمرني بلطفك بعد، فإنني أنا أيضاً معلقة على حافة الهاوية، ولا أستطيع أن..
- المشكلة أنني كلما أردت أن أفعل ذلك أبدو قاسياً خلافاً لسجيتي.

وقفت تنظر الي ملياً وهي حائرة ولسان حالها يقول؛ لمَ لا نكون كلانا على سجيتنا ككل الكائنات؟ لم كل هذه القيود التي نصنعها بأيدينا ونكبل أنفسنا بها؟ لمَ كل هذا اللف والدوران؟ ولكنها تركتني أتم طعامي وذهبت لشؤونها. وعادت بعد قليل بالشاي وصحن كليجة(*)

(*) نوع من المخبوزات العراقية الشائعة للأعياد والمناسبات، تصنع من الدقيق والسكر والزيت، وتحشى عادة بالتمر، أو اللوز والجوز والسمسم. كانت النسوة السومريات يشكلنها في قوالب خشبية أوفخارية، على أشكال آلهة أو بشر أو حيوانات.

قالت أنها أعدتها تحسباً لقدوم أبي عصام معي لتكون تحليتنا (وأضافت بسخرية مرة وأسىً عميق)

- وأرجو أن لاتعُدَّ ذلك عناية خاصة، ثم رفعت صينية الطعام من أمامي.

الفصل الثامن عشر

اليهودية العاشقة

جلست في اليوم التالي أفك رموز صفحات أخرى من دفتر الأسرار، فلم تكن مملة كسابقتها بل كانت غنية بالأحداث، كتبت تقول (في خريف عام١٩٢٦ بين روش هاشنا ويوم كيبور(*)، في أيام المغفرة تلك بالذات، وقعت في الخطيئة التي لا تغتفر، حين هفا قلبي لحب رجل، ما كنت أعلم أنه من الغوييم(**) حتى وقع الفأس بالرأس يا أماه، ولم يكن يسعني أن أطرده من القلب آنذاك، حتى لو كان طرده الوصية الحادية عشرة. إنه يعقوب صديق أخي ديفد، وزميله في الكلية. في يوم العيد، أكتفى ديفد بتقديمنا لبعضنا بكلمتين دون تفاصيل(يعقوب، يميما) أترين من يصدق أن أحدنا لم يكن من شعب الرب، وهذا ما ظننته حتى علقت بحبه، الحب الذي لا يغتفر، وسأبسط لك كيف حدث ذلك بالتفصيل، عسى أن تضعي نفسك

(*) روش هاشنا، عيد رأس السنة العبرية. ويوم كيبور، عيد يوم الغفران، وهما من أهم الاعياد عند اليهود.

(*) غوييم هم الأغيار أي كل ماعدا اليهود من الناس.

مكاني أيتها اليهودية التقية، يا أحب الناس الى قلبي، ضعي قلبك مكان قلبي، فهل لي من عذر؟ كان يعقوب شاباً جميلاً ثرياً، ابن باشوات، وكان الصديق المقرب الوحيد لأخي ديفد، كنت أراه كل يوم تقريباً، طوال العطلة الصيفية التي سبقت سنة تخرجهما، اقتحم يعقوب أحلام نومي ويقظتي، وفكرت لكم كنا مثاليين في كل شيء، وتيقنت أن ارتباط روحينا قدر لا فكاك منه، كنت أغار عليه من النسيم، لا أدري ممن ورثت هذه العاطفة المشبوبة، فأنت أدرى، ولكم سررت حين عرفت أنه خجول جداً، ولم يمنح أية فتاة من زميلاته فرصة الاقتراب منه كما قال ديفد. طرق الباب ذات يوم بينما كان ديفد خارجاً وأعطاني رسالة له، وذهب مسرعاً، وكم تمنيت أن يتريث قليلاً لأحظى منه بكلمة لكنه فر سريعاً، ولم يكن الظرف مغلقاً فأخرجت الرسالة وقرأت، كانت قصيدة غزل ملتهبة، واشتعلت النار في قلبي وصورته لي الغيرة عاشقاً خجولاً يستعين بصديقه الجريء ديفد، ليوصل قصيدة غزل الى حبيبته، وحين عاد أخي أعطيته الرسالة ولبثت أنتظر أي رد فعل قد ينير طريقي، وهتف بفرح.

- برافو ياكوف! برافو! فعلها أمير الشعراء

وتغابيت وأنا أسأل؛

- أحمد شوقي؟

فضحك وهو يقول

- من يكون أحمد شوقي يا بنتي؟ إنه يعقوب باشا أمير شعراء الكلية.
- وهل هي مؤثرة الى هذا الحد؟
- ماهي؟
- القصيدة؟
- كيف عرفتِ أنها قصيدة؟ ها؟ كيف؟ هل فتحتها؟
- مالك يا ديفد؟ ألم تقل تواً أنه أمير الشعراء؟
- أها؟ نعم ..حسبت..

انقطع يعقوب بعد تلك الرسالة ستة أيام كانت أطول علي من أيام الخليقة، فبينما كنت أتحرق شوقاً لرؤيته، كنت أزداد غيرة عليه، ويصور لي الخيال العليل قصصاً كثيرة منها أن ديفد، المعروف بشطارته في الوساطات وتقريب وجهات النظر، قد أفلح أخيراً في التقريب بين يعقوب وحبيبته المفترضة، وأن تلك القصيدة قد فعلت فعلها، ولم يعد له وقت فراغ ليزورنا لانشغاله بالمواعيد السعيدة معها. حينئذٍ طفح كيلي ولم أعد أصبر على نار تلك الظنون، وعزمت على معرفة الحقيقة فاختلقت أمراً لا أساس له، قلت؛

- ديفد! يخيل الي أني رأيت صديقك يعقوب مرَّ بناصية شارعنا مع فتاة، وكانا متجهين الى ساحة التحرير.

انفجر أخي ضاحكاً، وبالكاد استطاع أن يتكلم..

- لابد أنك تهلوسين يميما، جريمتان يرتكبهما يعقوب في يوم واحد.
- لم أفهم. أقول لك رأيته فتتحدث عن جرائم.
- إنه صديقي الوحيد ياعزيزتي أنا أفهمه تماماً، الجريمة الاولى التي اتهمته بها تواً، هي أن يمر بشارعنا دون أن يعرج لزيارتي، أما الجريمة الثانية فهي أن يخرج ليتمشى في شارع السعدون مع فتاة، إنه يستحي من خياله ياعزيزتي، وغير هذا وذاك فإن المسكين المتهم عالق مع أبيه في البصرة منذ اسبوع.
- البصرة؟
- نعم فوالده يسافر الى هناك دائماً لمتابعة أعماله وجني إيرادات أملاكه، ويبدو أنه قرر هذه المرة أن يصطحب يعقوب معه ليقنعه بأن يتولى إدارة أملاكهم بعد التخرج الامر الذي لا يطيقه يعقوب، وقد أتفقنا أنا وإياه مع خالي شاؤول على العمل كمتدربين في مكتبه بعد تخرجنا مباشرة، الامر الذي سيقيم الدنيا ولا يقعدها، لكنه غير عابئ لأنه يفضل المحاماة على التجارة والصناعة(يطعي جوز للمالو سنان)(*)

قد تتسائلين يا أمي لم أسرد لك كل هذه التفاصيل، لا أدع شاردة ولا

(*) مثل عراقي مشهور، وهذا لفظه باليهودية البغدادية، يعني أن الله يعطي الجوز لمن ليس له أسنان ليكسره.

واردة الا بسطتها، ذلك لأنني أريدك أن تعيشي ماعشته لحظة بلحظة وكلمة بكلمة، إني أفعل ذلك مخاطبة فيك الأنثى، إذ لاشك أن قلبك قد خفق ذات يوم، وهذا ما حدث لي، ولسوف أوافيك به يوماً بيوم على الورق،لأنكما لم تتيحا لي فرصة الدفاع عن نفسي، الفرصة التي يتمتع بها حتى أعتى المجرمين)

صحيح أنني حفظت الحروف عن ظهر قلب بتكرار ترجمتها بحيث أنني لم أعد بحاجة لورقة الابجدية أحدق فيها كل حين كما كان الامر أول صفحة، بيد أنني شعرت بأن الامر يتعلق بفتاة يهودية تدعى يميما كانت تعشق أبي، وقد كتبت رسائلها لأمها في دفتر وقع في نهاية المطاف بيد أبي بطريقة ما فاحتفظ به مطمئناً الى أن خديجة خانم لن تفهم منه حرفاً واحداً، وقد همدت حماستي المشبوبة بعد أن تبين لي أن الامر يخص امرأة أخرى خلافاً لما كنت أظن، ولذلك آثرت أن أكتفي بالقليل منه كل يوم.

الفصل التاسع عشر

من يميما الى خديجة

(نعم يا حبيبة قلبي.. لسوف أسرد لك تفاصيل ما جرى معي عسى أن ينصفني قلبك، لا أدري ذنب من أنني لم أكن أعرف حين وقعت بحبه، كما لا أدري إن كان سيختلف الامر لو أنني عرفت، فإنني أشك بوجود حواجز يمكنها أن تقتل الحب. لم أعد أطيق فراقه لحظة واحدة، ومع ذلك لم نكن نحظى الا بالنزر اليسير من اللقاءات، وكلها بحضور ديفد، بحيث لم يكن يسعنا أن نتبادل فيها الكلام، عيوننا وحدها كانت تتكلم، وهي لغة ليس للعقل وجود بين مفرداتها، فهي تتغلغل في أعماق الروح دون المرور به. وحتى أثناء لقائنا اليتيم عند ناصية الشارع، قبيل تخرجهما، ذاك اللقاء القصير، لم نقل فيه الا القليل، فهو خجول، قليل الكلام، وهذا أحد الاشياء الكثيرة التي أعشقها فيه، بالكاد استطاع أن يعترف بأنه أحبني منذ أن رآني لأول مرة، وأن القصيدة التي طلبها ديفد كان قد كتبها لي، وقد تعمد إغفال لصق مظروفها لأقرأها، وقلت له أنني قرأتها بالفعل بيد أنني ظننت الأسوأ، أي حسبت أنها موجهة لحبيبته بوساطة ديفد، ورويت له كيف أشعلت غيرتي، ففاضت عيناه بالدمع، منذ ذلك الحين وأنا أكاد أجن

شوقاً اليه، فهو لم يعد يمر بديفد الا نادراً، لأنهما باتا يعملان معاً في مكتب خالي شاؤول، وبتُّ أعد الايام لانقضاء تلك السنة ليتقدم لخطبتي. لكنه انقطع في الآونة الاخيرة نحو اسبوعين، فجن جنوني ولم أجد بداً من الذهاب الى المكتب للقائه، وانتهزت فرصة سفر الجميع لزيارة حزقيال النبي في الحلة، بمن فيهم خالي وعائلته، تمارضت لأتجنب الذهاب معكم، وبقيت في البيت مع جدتي، ثم استأذنتها بعد حين بحجة الذهاب الى صديقتي في الجوار، بيد أنني توجهت على الفور الى شارع السموأل حيث يقع المكتب، كنا في أشد الشوق لبعضنا وكان ينبغي أن يمثل لقاؤنا أسعد لحظات العمر، بيد أنه كان يخفي عنا الجحيم التي مازلت أتقلب فيها، سألته..

- ما ادراك أنني سآتي الى المكتب؟
- لم أكن أدري، بل لقد فاجأني حضورك.
- حقاً؟ لمَ لم تسافر معهم الى الحلة إذن ؟ حسبت أنك بقيت لأجلي.
- أنا؟ (وضحك)عندما ياتون معي لزيارة جدي الحسين سأذهب معهم الى ناحوم وعزرا وحزقيال وكل الانبياء.

صدمت مما حسبته مزاحاً، فكررت عليه السؤال بطريقة أخرى، كما لو أنني لم أسمع الانفجار المدوي للكلمات التي قيلت تواً، قلت ..

- لا تمزح حبيبي وأجبني، ألست متديناً؟ ألا تذهب الى التوراه أبدا؟ نعم ! فأنا لم أصادفك هناك يوما.

- أنت التي تمزحين ياعمري . وعموماً، نعم لست متديناً.
- لايهم، حتى لو كنت ملحدا لا يهمني، فهذا شأنك ولن يغير من حبنا.
- اكيد ياعمري. لو لم نكن واثقين أن حبنا فوق أي اعتبار لما تمسكنا به رغم الثورة التي سنتسبب بها للطرفين.
- لم أفهم حبيب قلبي ياكو، بت تتحدث بالالغاز، قل لي ماذا تعني بالطرفين؟
- المسلمون واليهود ياحبيبتي، سيقيمون الدنيا ولا يقعدونها، وكأننا نشكل تهديداً لله وليهوه، عموماً، أنا لا يهمني، فهذه مشكلتهم لا مشكلتنا نحن، وتأكدي أنني لن أفرط بحبنا حتى لو تبرأ مني الجميع، قد أعاني لبعض الوقت من المقاطعة والنبذ، وفي آخر المطاف ينتهي كل شيء بمرور الوقت، الزمن يا حبيبتي كفيل بحلحلة الامور بالنسبة لكلينا، المهم أننا سنكون مع بعض الى الابد.

كان هو يحكي ورأسي يدور، يدور، تملكني شعور من يسقط من ارتفاع شاهق، وأخيراً فهمت، ولأول مرة، في تلك اللحظة بالذات، عرفت أنه مسلم، فهل بربك يا أمي يمكنني حينئذٍ أن أمحو حبه من قلبي هكذا ببساطة؟ كما أشطبه بجرة قلم؟ بعد أكثر من سنة من الحب والغيرة والاحلام والامال العريضة يتبدد كل شيء؟ محال! صحيح أنني فررت منه ساعتئذٍ، تركته ذاهلاً وهربت لا ألوي على شيء، ودون أن

تسعفني اللغة بكلمة، لكنني فررت مني اليه، وتركت قلبي لديه، وحين عدت الى البيت عدت بلا قلب ولاعقل ولا أنا، خاوية، لا يسعني أن أعيش أو أتنفس بعيداً عنه، ومرضت مرضاً حقيقياً، المرض الذي أوصلني الى الموت، ولاشك أنك تذكرينه لأنني لم أعانِ في حياتي كلها مثله، لقد وصلت يا أمي الى نقطة اللاعودة، ولم يكن أمامي من سبيل غير الطيران اليه، وفعلتها، أعلم أنكم تعذبتم كثيراً، وبحثتم عني كثيراً، قبل أن تعرفوا سرَّ اختفائي، أنا أيضاً كنتُ ومازلتُ أتعذب كلما فكرت بالأمر، بيد أن التخلي عن يعقوب آنذاك كان رابع المستحيلات، وحين عرفتم بعد حين، غضبتم وبلغني أنكم عددتموني ميتة، لكنني راهنت على حبكم لي وحسبت أن الأمر لا يعدو أن يكون غضباً عابراً سيأخذ مداه ثم يتلاشى بمرور الوقت، علماً أنني لم أترك ديني يا أماه، نعم لم أترك ديني لحظة واحدة، وربما تناهى لسمعك أنني صرت خديجة، لا يا أمي، لا!.. شفعتي لإلوهيم والعشرة مال الله(*) لم تكن خديجة سوى ثوب العرس الذي لبسته يميما لتزف الى يعقوب)

يا الهي..! أعدت قراءة الجملة الاخيرة مراراً وتكراراً، فربما أكون قد فهمتها خطأ، لا! بل إنها صح، يميما هي أمي خديجة صالح برهوم.

تملكتني رعدة لم أألفها من قبل ولم أعد أستطيع أن أواصل، ارتديت ملابسي وفررت الى نهر دجلة، جلست على الرمل البارد أطفئُ

(*) قسم باليهودية البغدادية، يعني أقسم بالرب والوصايا العشر.

اشتعالي، مددت قدمي حتى لامستا الماء، رحت أستعيد بهدوء كل ما قيل لي عن وفاة جديَّ لأمي منذ الطفولة. وان ليس لي أخوال ولا خالات ولم يكن الامر صعباً على التصديق، فأنا أصلاً بلا أعمام أوعمات فما الفرق. لقد تزوج أبي سليل العائلة العلوية الذي يحلف الناس برأسه من فتاة يهودية، وعانى الأمرَّين من أهله، والحق أنني بعد تأمل في الموضوع، حتى وقت متأخر من الليل، وجدت أن أبي كان في غاية الوفاء والانسانية والتحضر، بل لقد شعرت بمزيد من الفخر، وبينما كانت مويجات دجلة الخفيفة تلثم قدمي، شعرت بأنني حزت الشرف من كلا طرفيَّ، موسى ومحمد. خلعت ملابسي وأخذت الماء البارد الاسود بصدري المعشوشب مثل فحل جاموس، اغتسلت من الصدمة وأزلت عني غبارها قبل أن أعود الى البيت أتضور جوعاً، وتملكتني روح دعابة وأنا أنادي على جلنار لتعد لي العشاء، وأفكر؛ هلمي لتتشرفي بخدمة سليل الانبياء.

الفصل العشرون

الجحيم

(أنتم لاتعلمون ما فعله بي هجرانكم يا أمي، لقد غيرني ظلمكم الى امرأة لم أعد أعرفها. وكان عزائي أن تضحيتنا كانت مشتركه فهو أيضاً، تحمل النبذ والعوز والمقاطعة، رغم أنه كان الولد الوحيد المدلل، وكان خليقاً بي أن أكون وفية كما علمتماني، توسلت بكما أن تباركا حبنا وتفهما لغة قلبينا، ولكن عبثاً، لقد كنتما أقسى علي من أبيه عليه، فهو ما لبث أن أعاده الى حضنه بعد أقل من عام، وكتب له في حياته بناية في الجادرية، وظل يتردد علينا كلما قدم من البصرة ،التي استقر فيها بعد زواجنا، حتى وفاته. هذا ماكنت أرجوه منكم، بيد أنكم طعنتموني على الجرح نفسه حين لجأت اليكم بعد سنة من القطيعة، أتذكرين يا أمي حين طرقت الباب أتسول بعض الحب ممن أحضراني لهذه الحياة عنوة، ولم أكن قد أتممت التاسعة عشرة من العمر بعد، فماذا وجدت؟ أطل وجهك الحبيب من فرجة الباب متجهماً، لم يكن الوجه الذي ألفت ملامح غضبه حين كنت أخطئ ككل الاطفال، لا أبداً، كان وجهاً لم أره من قبل، واستعطفتك بالكلمة السحرية...

- ماما.

الكلمة التي تجعل الحجر قلباً، بخلاف إلهك الذي يجعل القلب حجراً، والذي لا يمكن أن يكون الاله الرحيم الذي عرفته؟ لا يا أمي، إن الاله الذي يحيل قلب الام الى حجر، ليس هو الاله الذي خلق الانسان، بل هو إله خلقه الانسان، إنه الاله الذي صنعتموه بأيديكم كما يفعل الوثنيون. إن الاله الذي قال لك اطرديها لا يمكن إلا أن يكون شيطاناً..

- إياكِ أن تعاودي الكرة، نحن لا نعرفك، من تكونين؟ خديجة؟ ليس لنا ابنة بهذا الاسم فنحن يهود.

هذا ما أفاض به عليك إلهك الجديد من شواظ جحيمه، لا تنسي ذلك يا امي، دعي تلك الفعلة تضرم جحيمك طول العمر، وسمعتك ساعتئذ ترددين اسماء الرب وأنت تصفقين الباب بوجهي، انا ابنتك الحبيبة الوحيدة، يمامة قلبك، كما كنت تناديني، تذبحينني من الوريد الى الوريد باسم الرب. وعلامَ كل هذا؟ على عقيدتك؟ دينك؟ آلهتك؟ تفو! اللعنة عليها جميعاً.

أكتب كل تلك التفاصيل كي لا أنسى، وكي أعود اليها كل حين لأضرم جحيمي، جحيمي أنا وحدي لا أنتم ولا يعقوب ولا آلهتكم. فما أنتم جميعاً إلا بعضٌ من حطب ذلك الجحيم.

أذكر آنذاك، أن يعقوب كان يتمشى عند ناصية الشارع بانتظاري، عدت اليه أنشج وأذرف الدمع غزيراً بصمت، ضمني بين

ذراعية وقال وهو يرسم ابتسامة، بت أراها بعد حين، غبية بلهاء، قال كلاماً أغبى منها..

- إن كان يسعدك أن تعودي لأهلك، طلقتك حالاً، أو قولي لهم أنني سأصير يهودياً الان.
- أعدني الى البيت حالاً.

قلت ذلك لأن حلوله تلك باتت تافهة ومتأخرة على الثورة العارمة التي كانت تعتمل في نفسي، كانت كلماته مثل دواء يعطى لميت. سوف لن يشغلني شيء بعد الان، غير التمرد على الجميع ومعاقبة الجميع وإذلال الجميع، يجب أن يشربوا كلهم من الكأس التي تجرعتها تواً.

أعلم أن شكواي وغضبي لن يصلكم يوماً أبداً، بيد أنني لم أعد أملك غير خيالكم أناجيه ليل نهار كالمجنونة، وأذكي به نار جحيمي. فمنذ ذلك اليوم المشؤوم انقلبت حياتي رأساً على عقب، وانقلبت معها حياة الانسان الطيب المخدوع الذي أحببت، فلم يعد يجد بي القلب الذي كان ملاذه الوحيد ذات يوم، لقد مات قلبي يا أمي، مات على يديك منذ تلك اللحظة، وشرعت أعاقبكم بالتمرد وأعاقب الرجل الذي أحببت بالخيانة، لأنكم جميعاً السبب فيما أنا فيه، ولكنني أدركت بعد فوات الاوان أنني كنت أعاقب نفسي بالذات، أتقلب باللذة حيناً وبالجحيم أحياناً كثيرة)

لم أستوعب الاسطر الاخيرة من هذه الصفحة، ما الذي عنته بالخيانة واللذة؟ ترددت كثيراً قبل أن أواصل، وما لبثت أن عجزت عن الاستمرار، فإن ما عرفته تواً يفوق طاقتي على التحمل.. لذلك لهمت كل ما بقي في درج مكتبي من مهدءات، لعلها تمحو هذه الكارثة أو تمحوني كلي..

الفصل الحادي والعشرون

على حافة الموت

حين فتحت عيني، رأيتهما يحدقان بي بقلق وترقب، أردت أن أذهب الى الحمام فلم تستجب رجلاي، يا إلهي هل شُلَّتا؟ أنزلاهما من السرير، ثم وضعا قدمي بالخفين، ورفعاني من إبطي وما كدت أستقيم حتى شعرت بأن الارض تميد تحت قدمي فعدت الى الجلوس.. وبالكاد استطعت أن أسأل..

- كم يوماً مضى علي بهذه الحالة؟
- يومان يا سيدي، لا ردها الله، كنت في غيبوبة، ليس غير النفس يتردد في صدرك(قال سعدي)
- لقد تشاجر سعدي مع الطبيب لأنه قال بعد أن عثر على علبة حبوب فارغة قرب السرير، أنك بعد هذه الكمية من الحبوب ميت لامحالة، وأراد تعقيد الأمر وإبلاغ الشرطة، وبالكاد تمكنت من تسوية المشكلة بينهما. علق لك المغذي وزرق به ابرتين قائلاً مالم يستفق حتى الغد يجب نقله الى المشفى ، وحتى ذلك الحين يجب أن لايغيب عن عيونكما

لحظة(قالت جلنار.. ثم أردفت) إسم الله عليك ها أنت تستعيد عافيتك، الحمد والشكر لله على سلامتك.

- لقد كان متعالياً وعدوانياً يا سيدي، تصرف معنا كما لوكنا مجرمين، ثم أليس من الخطأ أن يقول الطبيب ذلك أمام المريض ماذا لوكنت سمعته في تلك اللحظة؟ لقد فكرت أن استدعي طبيباً آخر، لقد كان هائجاً فعلاً لولا أن جلنار جاءت بعد أن ارتفع صياحه وروضته. (والتفت الى أخته يلومها) وأنت، هل كان ضرورياً أن تشغلي باله بهذا الكلام؟ هذا كله لم يعد مهماً، المهم أنك عدت الينا والحمد لله.

وبالكاد استطعت أن أقول مع كل هذا الدوار..

- خذني الى الحمام يا سعدي.

وشعرت بجسده النحيل ينوء بثقل جسمي، وحاولت أن أخفف عنه ولكن قدمي كانتا تخذلانني، وبالكاد أوصلني الى باب الحمام، وحين خرجت كان بانتظاري في الصالة وكانت جلنار تخرج حشية السرير والشراشف والوسائد إيذانا بتنظيفها وقد فرشت سريري بغيرها، لم أعد أتصور حياتي بدونهما، وما كان سيحل بي مع هذه الصدمات لولاهما..

جلست في الصالة وتسمر سعدي واقفاً بين يدي بصمت، كان معلقاً بشفتي، قبل أن يتكلم في محاولة للتسرية عني..

- يجب أن ترى الحديقة يا سيدي، فأنت لم تتجول بها منذ ما قبل ذهابكم الى القوش. لقد غدت جنة كما تريدها.

وشيئاً فشيئاً استطاع أن يستدرجني لحوار طويل حول الحديقة وما فيها من نباتات ومواسم زراعتها المختلفة، وسحر الربيع في الطبيعة، وفي تلك الاثناء كانت جلنار تمر بنا رائحة غادية عبر الصالة وهي تنجز أعمالها، تبطئ خطاها كلما قربت منا، لتلقي لنا سمعها بفرح أمٍ تماثل طفلها للشفاء، ويرتج خدها بحياءٍ فتشرق فيه رصعة ابتسامتها الحيية، وكنت أدري أنها تدري أنني أدري أنها تدري أنني أتابعها.

الفصل الثاني والعشرون

الحضيض

سيسأل القاريء الكريم؛ أي سر يمكنه أن يؤدي بالمرء الى الانتحار؟ حسناً، سأبسطه أليك ولك أن تحكم، وإن كنت لا أشك لحظة أنك ستجد الانتحار قليلاً بحقه، ولكنه الحد الأدني مع غياب أصحاب الشأن، والا فإنهم أولى مني بالموت بطبيعة الحال، فما أنا الا ثمرة تلك الكارثة التي لم أعد أهتم لتفاصيلها بعد أن صعقتني بكلها، ولذلك قرأت بجرأة لا تقل عن جرأة الكاتبة..

(....ولكنني أدركت بعد فوات الاوان أنني كنت أعاقب نفسي بالذات، أتقلب باللذة حيناً وبالألم أحياناً كثيرة، وكان يعقوب أضعف من أن يشعل ثورة تلجم ثورتي، أعادني الى البيت مستسلماً كما أردت، ولم يلبث أن أمر سائقه أن يستعد للانطلاق الى البصرة، الأمر الذي أحسب أنه بات يلجأ اليه كلما أراد الفرار من مسؤولياته، دون أن يكون لديه عمل عاجل هناك، وأمضيت تلك الليلة التي كنت بأمس الحاجة اليه خلالها، وحيدة، وانعكس جحيم روحي على جسدي حمى شديدة، وإذا بيد سماوية ضخمة لكنها حنونة بقدر يفوق التصور تمسح الدموع عن عيني، وتطفئ سعيري بكمادات باردة، وتعد لي الشوربة

وتطعمني بالملعقة كطفلة، تخف الي لتعينني على جسدي كلما أردت، وحين فتحت عيني احتضنتهما عينان تفيضان حباً يترقرق بالدمع، يالله ، حتى أمي الحبيبة أيام كان لها قلب من لحم ودم، ما كان بوسعها أن تفعل أكثر من ذلك، وفي وهدة من الليل غفلت عنها الآلهة والشياطين على حد سواء، وكنتم، أنتم ويعقوب تغطون في نوم عميق، مددت اليه يدي المحمومة، فحسب أنني أردته أن يبللها، وهم بأن يضع عليها كمادة أخرى، لكنني جذبته الي، جفل أول الأمر ثم أسلس لي قياده وانجذب، صحيح أنني سيدته وأكبره بعام فهو في الثامنة عشرة، ولكننا كنا وحدنا في هذا البيت الكبير، حيث لا سيادة لغير الحب الذي كان ثالثنا، تمدد الى جانبي مرتبكاً غير متأكد مما يتوجب عليه أن يفعل لسيدته، حتى أمرته أن يعريني، قلت له إنني أشتعل، وما كاد يرى جسدي المشع الذي لم يعزف عليه يعقوب الا لماماً، حتى أشجى روحي بأعذب الالحان، فعل بي ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب، أوصلني الى الذروة مرارا، كنت أجأر الى رب أمي.. ولا من مجيب، وفعل كرومي بي في ليلة واحدة ما عجز يعقوب عن فعله في سنة، علمني مالم أعلم، ورأيتني تحته يمامة حقيقية تحت صقر، قلت له؛ كلي لك.. شقَّني! قطِّعني! كلني! .. وبعد أن سكرت بخمره مراراً، توسدت أدغال صدره وغفوت، وفي الصباح لم تكن ثمة حمى ولا من يحزنون، وصار هو سيد قلبي الذي يلذ لي أن أجلب له الفطور الى

السرير. وبعد أقل من تسعة أشهر جاء يوسف وقد كانا لكل ذي عينين، حبة ومقسومة)

ماذا؟ حبة ومقسومة؟ يا الهي! أليس هذا ما قالته جلنار حين رأت صورة أبي في صدر المكتب، وعدت الى حيث كانت تقف، لقد كان الالبوم ما يزال متروكا حيث فتحته على صورة لكاكا كريم وهو يقف الى جانبي ويمسك بيدي وكنت آنذاك في العاشرة. هذا هو إذن الذي أنا واياه حبة ومقسومة. وهذه هي الحقيقة التي التقطها عقلي الباطن من تعليق جلنار العفوي والدقيق، وألقى بي في تلك النوبة من العلل والكآبة، بينما كان عقلي الواعي غافلاً مغفلاً، يحاول أن يقنعني بالوهم ويحجب عني الحقيقة.

ليس هناك وضوح أكثر وجعاً مما كنت فيه، ارتديت ملابسي على عجل وهرعت الى أقرب مخزن للمشروبات حيث اشتريت زجاجة عرق، الامر الذي لم أفعله في حياتي غير مرة يتيمة كدت أموت بعدها بتسمم الكحول، عدت الى البيت، صعدت الى العلية، جلست أشرب وأبكي ، أشرب وأبكي بصمت حتى غفوت على البلاط.

الفصل الثالث والعشرون

سقوط الجدار

حين صحوت عند الفجر، كان رأسي يكاد ينفجر من الصداع، وكنت جائعاً جداً، ولم أكن أذكر الكثير مما فعلت الليلة البارحة، تسللت الى المطبخ وأخرجت كل ما كان في الثلاجة من بقايا أكل بارد وأكلته دون تسخين ، أعددت إبريق شاي وشربت بالكوب بدلاً من الاستكان، لأطرد هذا الصداع اللعين، وقفت في غرفتي أمام المرآة أبحث عن أية قشة شبه بالباشا يمكنني أن أتعلق بها وأنجو من الغرق في لجج الحقيقة الصاخبة، ولكن عبثاً، إذ ليس ثمة شيء من ذلك، أردت أن أواصل التغافل فقلت؛ ربما أخذت صفاتي الجسدية من أسرة أمي، بعثرت محتويات الخزانة في العلية على اتساع الارض، قلبت صفحات الالبومات والكتب والمجلات، والصناديق الصغيرة، كنت أحلم بجسد مربوع، أو ضخم الاطراف، أو كث الشعر، أو مسطح الجمجمة، أو له عيني، أو أنفي، أو فمي الكبير، أو بشرتي الحمراء، نعم(أو)وليس(و)فلست أحلم أن أجدها جميعاً في أحد أخوالي إلا إذا كان كاكا كريم ذاته، صفة واحدة منها كانت تكفي لأطفاء حريقي، وأخيراً، عثرت على صورة عائلية تجمع أمي بوالديها وشقيقها وقد

دست بين طبقات الرفوف الخشبية للخزانة إمعاناً في إخفائها، كتب على ظهرها، (بمناسبة انتساب ديفد لكلية الحقوق ١٩٢٢) وليتني ما عثرت عليها، لأبقى معلقاً بالوهم، لكنني الان غارق لامحالة، فقد رأيت فيهم وسامة ليس لي منها نصيب قط، أسقط في يدي واستسلمت لمرارة الحقيقة أتجرعها وأتوارى خلف براءتي من خطيئتها، مكتفياً من الغنيمة بالإياب. حينئذٍ، سقط الجدار المقدس الذي دأبت على ترميمه ورفعه بغباء، سقط كل ما كان يحول بيني وبين جلنار، جلنار التي، إذا كان الشرف يكمن في الانساب كما يزعمون، فهي أشرف مني الان، هي النبيلة وأنا الوضيع، وبات حقيقاً بي أن أتساءل إن كانت هي ترضى بي، والحق أني لاشك أن تفعل لو عرفت.

عزمت على الخلاص من كل ما يذكرني بالماضي وكان أول شيء فعلته أني دخلت الى المكتب وجمعت كل الاوراق والوثائق والصور المتعلقة بكتاب الزيف الذي كنت انسجه حولي مثل شرنقة، نقلت كل ما يتصل به الى الركن البعيد من الحديقة، وخفت الي جلنار تريد مساعدتي لكنني رفضت بلطف أثار استغرابها، فظلت مسمرة في مكانها، ولم تتبين ما قلته همساً..

- أنا أولى بحرق أوهامي لأضمن أن لا تعود الى الحياة مجدداً.

الفصل الرابع والعشرون

اللعنة

في الصفحة الوحيدة التي أرختها من دفتر العار، كتبت؛ (اليوم، التاسع والعشرون من آيار ١٩٣١، عيد ميلاد يوسف، لقد بلغ الثانية حبيب قلبي، لكنه يبدو في الرابعة، بحجم أطرافه وقوة جسده وفرط نشاطه وذكائه، وكنا وحدنا لحسن الحظ، أقترح كرومي أن نحتفل في الكوخ فوافقته الرأي لما يحمله المكان من ذكريات جميلة، علقنا البالونات والاوراق الملونة، وقلبنا ليوسف صندوق ألعابه على اتساع الصالة الصغيرة، وافترشنا الارض بقالب الحلوى، أطفأنا النور وأشعلنا له شمعتين، راح يتنطط مسروراً ويرمي كل ما يصادفه بجميع الاتجاهات، وأشعل النشاط والحماس شهوتنا فتعانقنا وهو يتقلب معنا على الارض ويكركر، يحسبنا نلهو معه، ومع دفء المكان واشتعال رغبتنا بتنا نتصبب عرقاً، هصرني تحته فتنهدت من فرط اللذة بصوت عالٍ فظن يوسف أنه يضربني فراح يلكمه بكفه الصغيرة على ظهره، فاستوى كرومي ضاحكاً ورفعه بكلتا يديه دون أن يخرجه مني، وراح ينططه ويختلج فوقي حتى أوصلني وملأني شهداً فضحكنا ولهونا الى وقت

متأخر من الليل، كنت أداعب شعر صدره بأصابعي وألعقه بلساني وكان يوسف ينتفه بأصابعه ويضحك حين سمعتني أقول..

- كرومي!
- ياروح كرومي!
- أريده من الخلف..

أطلق ضحكة مجلجلة وهو يذكرني بالمرات العديدة التي اشتهيته أن يفعل ذلك ولم أكن أطيقه، وكل مرة كان يحجم بسبب الالم الذي يحدث لي لأنه كبير جداً. فقلت..

- ماعلينا من قبل أنا أريده الان، ولا يهمني حتى لو شقني نصفين.
- حسناً لا تلومي الا نفسك.
- خلصنا، لا تلح .
- هاتي تلك الزجاجة التي فوق الطباخ إذن.

نهضت وجلبت الزجاجة وحين فتحتها فاحت رائحة الدهن الحر، دهنه وولجه على مهل حتى غاب فيَّ الى آخره وكأن شيئاً لم يكن استدرت اليه أتلمظ وقلت منتصرة ..

- ها؟ مارأيك؟
- الفضل يعود للدهن الحر(همس ضاحكاً)

- لا تحرمني منه بعد الان، أنت لا تدري كم أحب الداطلي[*] بالدهن الحر.

واغرقنا في الضحك، ثم التقم شفتيَّ، وواصل غلَّه في أعماق جحيمي حتى ارتعشنا معاً، ولم نفطن ليوسف الا بعد أن ارتوينا وانفتحت أسماعنا لصوته وهو يئن ويقيء، هرعنا اليه كان متكوراً على نفسه في زاوية الصالة يمص اصبعه وقد أفرغ من جوفه كل ما أكله من الحلوى)

(*) حلوى تصنع من الدقيق والسمن تقلى بالزيت وتتخذ قطعها شكل قضبان .

الفصل الخامس والعشرون

اغتراب

عكفت في الايام اللاحقة على قراءة ما بقي من دفتر العار، علني أجد ما يثبت أن كل ماسبق كان كابوساً أو قصة من نسج خيالها، كنت أقرأ بصمت ووجوم، وقد شعر الشقيقان بالتغير الذي طرأ عليَّ، كنت أبدو لهما كأنني ضيف في بيتي، لا أكاد أرفع رأسي بوجه أحدهما، أتنقل بين السرير والمكتب والعلية، وأخرج من حين لآخر بعض الاوراق الى محرقتي، لا أجلس في الصالة إلا حين أمر بها متعباً فأتهالك على مقعد لبضع دقائق قبل أن أواصل مهمتي الغامضة.

وراحت الصفحات تترى ومعها الصفعات تتلاحق، كنت عازماً على المواجهة، حتى أصل الى مصالحة مع الذات، الذات التي هبطت من علياء الوهم الى أسفل سافلين..

(في حج هاشفوعوت(*) القادم عزمت على زيارتكم وليكن ما يكون. سيبلغ يوسف الثانية عشرة من العمر، ولم يمل بعد من السؤال عنكما، قلنا له مراراً وتكرارا أنكما ميتان، لكنه بات يريد مزيداً من التفاصيل،

(*) عيد الأسابيع عند اليهود ويقع بين آيار وحزيران .

ربما كان يكشف الاكاذيب التي كنا نلفقها، ويجد الثغرات في حكايتنا، يواجهنا أحياناً فننكر ونفلت، تذكرني فطنته بخاله ديفد، سأزوركم عسى أن تكون النفوس قد هدأت، وأصل ما انقطع بيننا من أجل يوسف على الاقل، ولكن اليوم المرتقب ما كاد يحل حتى حلت بنا كارثة الفرهود(*)لقد جن بعض الناس وكشر بعضهم عن أنياب وحوش كاسرة، وكاد قلقي عليكم أن يقتلني، كانت بغداد تموج بالرعب، ولم يعد يعرف اليهودي عدوه من صديقه، كأنه بعد سبعة وعشرين قرناً من عراقيته اكتشف الان أنه ليس عراقياً، فقد انقلب البعض بين ليلة وضحاها الى وحوش بشرية.

تركنا يوسف في البيت وتوجهنا اليكم أنا ويعقوب، وجدنا الباب مقفلاً ولا أثر للحياة،رحت أطوف في طرقات البتاويين كالمجنونة، ثم لمحت عزرا الساعاتي يتسكع بمحاذاة الجدران خائفاً متوجساً، هرعت اليه بلهفة كأنني وجدت أبي، أشاح بوجهه عني وهو يخبرني أنكم سافرتم الى بعقوبة بضيافة الحاج خلف صديقكم القديم ريثما تهدأ الامور، وخشيت أن الحق بكم فأسبب لي ولكم حرجاً كبيراً أمام الناس، وآثرت أن أنتظر مع المنتظرين ريثما تهدأ العاصفة، ولكن ما أعقبها كان أدهى

(*) كلمة عراقية تعني النهب والسلب، أطلقت على عدوان نازي، تعرض له اليهود يومي الاول والثاني من حزيران١٩٤١بعيد(عيد الاسابيع) وراح ضحيته أكثر من مئة من المواطنين اليهود الابرياء وآلاف الجرحى .

وأمر، لقد حدثت موجة هجرة واسعة النطاق، وكانت إيران أحد أهم محطاتها وخشيت لقربكم منها في بعقوبة أن تفعلوها، ولم يطل الزمن قبل أن يقع ماكنت أخشاه، فقد عبرتم من هناك الى ايران، في أمان الله يا أمي و يا أبي و يا شقيق روحي، كونوا بخير، فأنتم لم تخلفوا وراءكم غير كلبة بلا إسم، آه يا أمي كيف طاوعتكم قلوبكم على فعل ذلك بي؟ حين كنتم هنا، رغم انقطاع الصلة بيننا منذ أربعة عشر عاماً، كنت أشعر بوجودكم، كنت أقول نحن في مدينة واحدة، ولكم مررت بالحي متخفية أتسقط أخباركم، وكنت كل مرة أعرف أنكم بخير أعود بشيء من الارتياح، أين أذهب الان، كيف لي أن أعرف ماحل بكم؟ لم أشعر يوماً بأنني وحيدة كما أنا الان، كأنكم لم تهجروني يوماً قبل الان. أشعر أنني معلقة في الهواء مثل ريشة في مهب الريح، لا أنتمي لهذا العالم الذي لم يعد يشدني اليه أحد، حتى يوسف، ابني الوحيد، فإنه بالكاد يذكرني به لكنه لا يشدني اليه، فهو أيضاً انتقلت اليه عدوى الصمت والعزلة والاكتئاب من ربيبه الذي يحسب أنه أبوه، فيمعن في تمثل علله النفسية وكأنه أراد أن يعوض بها عن الاختلاف الجسدي الواضح بينهما. أما كرومي حبيب قلبي وعزائي فهو الاخر لا يشدني الى العالم بل يشدني الي، لأنه يقف فيما بيني وبيني.

يا للعجب يا أماه ! كيف أنتهى بنا المآل الى كل هذا الاغتراب والقطيعة المفجعة ؟ لقد كنا دائماً في لبة هذا العالم، كنا متصالحين معه ومع أنفسنا، لكم كنا سعداء يا أمي، ولكم كنا نفيضُ عطاءاً، لا أذكر

أن بابنا رد متسولاً أو مشرداً ذات يوم قبل أن يردني، ما زلت أذكر رحمتكم بالناس المعذبين والقطط السائبة، مالكم يا أمي حين تعلق الامر بي، أنا ابنتكم يميما، غدوتم قساة الى هذا الحد، هبوا أنني قطة أو طير كسير الجناح، هل كنتم لتفعلوا بي ما فعلتم؟ هل كنتم لتتركوني وراءكم أتعذب هكذا؟)

لا ألومك عزيزي القارئ إن لم تبكك هذه الكلمات كما أبكتني، فحتى أنا أبنها بدد حجم الفحش والمجون شفقتي عليها وجفف دموعي.

الفصل السادس والعشرون

تداعيات

بعد تلك الصدمات والمفاجآت باتت الذكريات تتداعى ويُسقط بعضُها بعضاً، وما كان يتطلب جلسات عند طبيب نفسي غدا يفصح عن نفسه بسهولة ويسر، تذكرت المرات التي لا تحصى لها وهي تتسلل الى الكوخ كلما صادف أن أبي وسائقه كانا مسافرين الى البصرة أو الحلة أو الشامية، وما أكثر ما كانا يسافران الى هناك لتجارة التمر أو العنبر(*)، وكم مرة تبعتها الى شباك الكوخ وسمعت دون أن أرى لهاثهما وتأوهاتها تقطعها ضحكات ماجنة، وحين أسمع انطفاء شهوتها أفر بسرعة، أجلس في الصالة هادئاً كأن شيئاً لم يكن، وتعود بعد دقائق مهلهلة الثياب منكوشة الشعر، تشرق وجنتاها بفرح وردي ، ويتفصد وجهها عرقاً ، يعلو ويهبط صدرها بأنفاس متلاحقة ، تلقي عليَّ نظرة مرتبكة عجلى وتخف الى باب الحمام، حيث تتوارى ويختلط صوتها الرخيم بصوت رُشاش الماء وهي تدندن بحبور. وبعد أن تخرج أواصل

(*) أفخر أنواع الأرز العراقي ، يزرع في مناطق الفرات الاوسط ويمتاز برائحة زكية لامثيل لها .

مطاردتها بعيني الطفوليتين وهي تقف أمام المرآة تسرح شعرها وتلبس أحسن ثيابها قبل أن تدخل الى المطبخ لتعد حلوى التمر بالدهن الحر، وأشعر بالغثيان فأركض لأقيءَ في الحمام وأعودَ سريعاً الى حيث كنت دون أن تشعر بي، وبعد قليل يدخل كغومي كما كانت تناديه بتودد، أو كاكا كريم كما كان يحلو لي أن أسميه مقلداً مناداة أبي له. يأتي مدعواً برائحة الحلوى التي يحبها، وكانت أمي تضحك وهي تناوله الصحن الصغير قائلة ..

- فوّل زين .

فيرد ضاحكاً..

- شفتيني مرة ما مفول زين؟

فتربت على خده وتردد عبارتها التي لم أكن أدري لم ينفجران بالضحك حين تقولها بغنج..

- أحب الداطلي بالدهن الحر.

كما لم أكن أعي ما كانت تعنيه كلمة(فوّل)حتى سمعت أبي مرة يقول لسائقه (فوّل السيارة) فسألته كيف؟ قال يملأ خزانها بالوقود، ولم أجد رابطاً بين السيارة وكاكا كريم. لذلك لم أتمالك نفسي من الضحك بشكل متواصل بعد أن قالتها ذات مرة، وكم حاولا أن يعرفا سبب ضحكي لكنني لم أبح به، والحق أنه كان بسبب التصور الغريب والمضحك لكاكا كريم وهو واقف في المحطة ليُملأ بالوقود كالسيارة.

وأخذتني ذات مساء الى العلية بعد أن يئست من نومي، حيث ألقت أمامي كل المغريات التي طالما كانت تمنعني من مجرد لمسها من قبل، وتركتني هناك وهبطت، جلست ألهو وأمزق وأكسر ما شئت حتى اكتفيت ونزلت، كانت غرفة النوم مظلمة لكنني سمعت بها تهامساً، دلفت أتلمس طريقي في الظلمة، وانطلقت بغتة حركة مفاجئة مرتبكة، رأيت كاكا كريم على إثرها واقفاً أمامي شبه عارٍ، وقد تحشرجت الكلمات في حلقه فلم أفهم منه شيئاً، وفي تلك الاثناء كان باب الخزانة المفتوح يخفي خلفه جسداً عارياً آخر، غافلاً عن انعكاسه الفاضح على المرآة الطويلة المقابلة.

- ها يوسف، هل تريد أن تصلح السرير معي؟

كان ذلك كل ما جاد به فمه المتخشب، وانحنى ليوهمني أن رجل السرير مكسورة، ويقنعني أن نخرج معاً لنجلب العدة من السرداب، يا لخيبة الحجج التي ساقها ليبرر وجوده عارياً في غرفة أمي، ولكنني كنت آنذاك غير مدرك لما يجري حولي وتركته يصطحبني الى الصالة، حيث أجلسني في حجره وقال..

- صار الوقت متأخراً الان ياحبيبي، سوف نصلحه غداً، ما رأيك ؟

فوافقته الرأي ويبدو أن هذا كل ما كانت تحتاجه من الوقت لترتدي ملابسها وتغافلني لتسرع الى المطبخ وتتظاهر بأنها تخرج منه تواً، غير مدركة أنني كنت قد رأيت، وإن لم أفهم آنذاك.

كل تلك التفاصيل التي كنا نحلم أن تجود بشيءٍ منها جلسات الدكتور أبرم، بعثت من قبورها الدارسة في أعماق اللاوعي، حية مفعمة بالروائح والاصوات والصور كأنها حدثت اليوم .

الفصل السابع والعشرون

إلى غير رجعة

في الصفحات الاخيرة من دفتر العار بدت أمي مشوشة، وقد انعكس ذلك على تعابيرها التي لم تعد منطقية كما كانت من قبل، وباتت تلجأ من حين لآخر الى الكتابة بالخط اليدوي الذي لا أعرف معظم حروفه وكأن ثمة فضائح أنكى مما قيل، فكثرت الفراغات التي كان لزاماً علي أن أملأها من مخيلتي، وأصحح كثيراً لتكون حكايتها مفهومة على الاقل، كتبت..

(طالما تحدثت لك عن الزوايا المظلمة من حياتي، والحق أنني لا يسعني أن أنكر أن يعقوب بات يعتني بي أكثر بعد هجرتكم، وإن بعد فوات الاوان، فقد غدا قلبي مع شخص آخر أعشقه بجنون، كان يكثر من سفراتنا الى مصايف كرستان كل عام، وكالعادة كنا نصطحب معنا كرومي ويبقى أبوه في البيت لأن يعقوب هو من كان يقود السيارة في السفرات العائلية عادة، وكم كان يعذبني حبه لكرومي، ولاشك أن ذلك كان يعذب كرومي أيضاً، وفي العام١٩٥١ اشترى سيارة

مارسيدس، ومنذ تلك السنة ماكنا نسافر إلا بها تاركين الدوج مع السائق .

كما فاتني أن أذكر أنه طالما كان يحترم التزامي بديني وكان يقدس السبت معي، بل لقد بات يوسف يفعل الشيء نفسه دون أن يعرف السبب، ولا تنسيا أنه يهودي بالتبعية لي بطبيعة الحال. بيد أن يعقوب لو أشعل لي العشرة شمعاَ لن أغفر له تركي في البيت وحيدة أياماً وليالي مع فحلٍ شهيٍ ككرومي، لا أدري أيحسب أن كونه بالكوخ كان يحول دون لقائنا، أم تراه يحسب أن كوني سيدته سيمنعنا من ذلك، أم تراه مازال يعتبره طفلاً ساذجاً؟ لست أدري، حتى ليخيل الي أحياناً أنه قد يكون مصاباً بعلة الدياثة وأنه في الحقيقة يشتهي ما أفعل. لا أستطيع أن أظلمه فأجزم، ولكنني لا أجد تفسيراً مقنعاً لتغاضيه عن هذا الأمر، بل أن ما يفعله بي لا يغتفر. وقد أدى ذلك بمرور الزمن الى سقوطه من نظري، فلم أعد أحفل به كثيراً، بحيث أنني بت أشجع حبيبي على أن نفعلها في أي وقت نشاء، حتى حين يكون مشواره قصيراً داخل بغداد، أو حين يكون في قيلولة، أو مشغولاً بالحديقة، بحيث لم نترك زاوية من البيت الا وتضاجعنا بها، بينما ينام هو في سريري جثة هامدة، والحق أنني لم أعد بحاجة له ، ولكن عجبا ألم يتسائل، لمَ لم أطلب منه ذلك يوماً؟ صحيح أنه أخبرني بعد سنة من زواجنا أنه بات يعاني من عجز جنسي لم يجد له سبباً، وبدأ يراجع طبيباً نفسياً، ولكن ألم يخطر بباله يوماً لمَ لم ألمسه لمساً حتى؟ ثم بت لشدة غيظي منه واستيائي من تغافله،

أودعه بلساني (في أمان الله، وترجع بالسلامة) وفي قلبي أقول (روحة بلا رجعة) كلما سافر، حتى جاء اليوم الذي استجاب به إلهك لدعائي، نعم إلهك أنت بالذات يا أمي هو من يستجيب للدعوات الشيطانية، وشعرت بصحوة ضميري قليلاً لكنني هدهدته حتى غفى الى حين، وأخيراً ذهب الرجل الذي قلب حياتي، ذهب إلى غير رجعة ويبدو أنه حتى في هذه الرحلة الابدية آثر أن يصطحب سائقه معه، حدث ذلك باصطدام مروع وقع فجراً، في خريف عام١٩٥٥ بين البصرة والعمارة، أثناء عودتهما، رحل يعقوب الذي تركت من أجله الدنيا وما فيها، وتركني بلا أهل، إلا من إبن وعشيق، إبن ليس له منه شيء غير الغفلة التي دأبنا على استغلالها الى آخر قطرة من شهوتنا، وعشيقٍ ظلَّ يذكي بفحولته جذوة حبنا الى آخر لحظة، فماذوت ولا انطفأت لأننا كنا متشابهين تماما، لسوء الحظ.

الفصل الثامن والعشرون

انتحار واختفاء

كتبت في الصفحة الاخيرة بحروف كبيرة مرتبكة فقدت الدقة والعناية التي كانت تميزها من قبل..

(أمس احتفلت بعيد ميلادي الخمسين في أحضانه بالكوخ، حين سمعت يوسف يناديه عند الباب ليس بينه وبين عريي وعاري غير ستارة النافذة الصغيرة، ارتجفت بين يديه، ليس من النشوة هذه المرة بل من الفزع الذي تملكني، تركني كرومي في الكوخ وخرج واغلق خلفه الباب عليَّ، لاشك أن يوسف كان يظن أنني آخذ قيلولة الظهيرة في غرفتي، ولكن ماذا لو أرادني الان؟ ماذا لو دخل الى غرفتي ولم يجدني؟ يا إلهي..! هل سأتوارى الى الابد أم أخرج من الكوخ فيراني؟ لقد بلغت من الهوان أنني أرتجف خوفاً من ابني، ولم يكن بوسعي أن أخرج من وكر رذيلتي الا بعد أن جن الليل الذي يتستر به الخطاة من أمثالي، خرجت أتعثر خيفة مثل مراهقة خائبة تخشى أن تمسكها أمها بالجرم المشهود، أي هوان! يوسف لم يعد الطفل الذي أتركه في العلية أو ألهيه بالهدايا، اليوم هو في الثلاثين من العمر وهو سيد البيت فمن أكون أنا، ورغم كل هذا الصغار الذي أشعر به ما زلت عاشقة متصابية، يا لي من

فاشلة في كل شيء، أنا لا أحظى حتى بحب ابني الوحيد مثل كل الامهات، هل كان يدري؟ هل يعقل أنه يتذكر ما حدث في طفولته المبكرة؟ ويلي إذن، لقد خسرت كل شيء، لا دراسة ولا عمل ولا زوج ولا أهل ولا كرامة ولا شرف، حتى الشباب والجمال، رأس المال الوحيد، الذي كان لي، ولى وبات يذوي يوماً بعد يوم، وكرومي حبيب قلبي، الشيء الوحيد الجميل في حياتي، فحل لا تليق به إلا مهرة جامحة مثله، وليس امرأة في الخمسين. وأخيراً يبدو أنني أوشك أن يفتضح أمري، وحينئذٍ سيكون الموت أهون لكلينا. أشعر أن حياتي خاوية ونجسة، وينبغي أن أضع لها حداً. نعم لقد انتهى كل شيء، وداعاً يا أمي! وداعاً لطيفك الحبيب! وداعاً يا أبي الحنون! وداعاً ياديفد يا شقيق روحي وحبيب قلبي ورفيق طفولتي! وداعاً يا حبيب قلبي وثمرة خطيئتي، وداعاً يا يوسف! وداعاً يا حبيب قلبي و يا كل أهلي، يا عمري يا كرومي!)

طويت الدفتر وأنا أتذكر ما حصل قبل عشرين عاماً حين أخرجها كاكا كريم من الحمام غارقة بدمائها، لم أتبين حينئذٍ من يحمل من؟ فقد كان هو الاخر ميتاً، بوجهه الشاحب وشفتيه البيضاوين وعينيه الزائغتين.

وجدنا آنذاك رسالة قصيرة، تركتها على المكتب، تقول فيها أن لا أحد يتحمل ما حصل لها، وانها سئمت الحياة والغربة الخانقة وقررت الانتحار، وذيلتها ببصمة ابهامها دون اسم. ومنذ ذلك اليوم أختفى

كاكا كريم أيضاً كأن الارض انشقت وابتلعته معها، ولم يعثر له على أثر حتى نسي أمره، ولكن الى حين.

الفصل التاسع والعشرون

يوم مشؤوم

في ليلة قائظة، وَغِرَة من ليالي تموز عام١٩٧٩ خرجت أسرّي عن نفسي في شارع (أبونواس) قرب المنزل كما تعودت أن أفعل كلما ضاقَ خُلُقي، جلست في أقرب كازينو وطلبت زجاجة بيرة باردة،كان كل الجلوس مشدودين الى شاشة التلفزيون، التي كانت تواصل بث الأناشيد والأغاني الوطنية انتظاراً لظهور رئيس الجمهورية في خطاب وصف بأنه ذو أهمية تاريخية ، وفي تلك الاثناء كانت تسري في الحضور حمى اللغو الفارغ والشعارات العنترية، والمزايدات السقيمة، كأن مجموعة من القرود تزعق مرة واحدة، ولكن للقرود ميزة الاختلاف التي يفتقر اليها هؤلاء، لأن المختلف هنا يرسل وراء الشمس، وغالباً ليس وحده بل يأخذ بجريرته بشر بالكاد يعرفونه. لذلك كانوا يرددون نفس الكلمات كالببغاوات، ودائماً ثمة بعد الاصوات العالية همهمات مبهمة لا تغني ولا تسمن، تمثل ما لا يمكن أن يقال. كانت تلك المظاهر المقرفة أحد أهم أسباب عزلتي، وفجأة ران على الجميع صمت القبور، فقد ظهر النسر وانطلق السلام الجمهوري، ثم أطل الرئيس الستيني يتذرع بوضعه الصحي للتنازل عن جميع مناصبه الحكومية والحزبية، أعقب ذلك بيان

تسنم بموجبه نائبه صدام حسين رئاسة الدولة وزعامة الحزب الحاكم وقيادة القوات المسلحة، الامر الذي حصد العراقيون أول ثماره المرة فيما عرف آنذاك بمجزرة قاعة الخلد بعد أيام قلائل، ومنذ ذلك الحين لم يذق العراقيون طعم الراحة يوماً ولا أحسبهم سيفعلون قبل مرور مئة عام على ذلك اليوم المشؤوم، وإذا كان للشعوب أن تكرس للحزن والبكاء والعويل يوماً وطنياً يمثل نكبتها الوجودية، فليس ثمة يوم ينافس ذلك اليوم على الاطلاق. شملت الحضور بنظرة فوجدت ابتسامة سحرية مرة سبقتني الى الوجوه، الكل يعلم أن الدكتاتور الجديد كان يعد العدة، منذ سنوات، لعرش دكتاتوريته الدموية الخانقة، وتم له ما اراد لسوء الحظ، سارعت الى الخروج من المكان الذي لاشك أنه بات موبوءًا برجال الامن المتخفين لجمع الضحايا.

كنا نتحلق حول مائدة فيها ما لذ وطاب من طعام وشراب، تحت شجرة رمان وارفة الأغصان تتوسط فناءاً ذكرني ببيت أبي عصام في القوش، وكان رئيس الجمهورية يتحدث في التلفزيون تارة، وجالساً على رأس المائدة معنا تارة أخرى،عن المرأة التي تخون زوجها مع خادمها الشاب، ويرمقني بطرف عينه بنظرة غامضة شعرت أنها طعنتني في الصميم إذ بدا لي أنه يعرف سري، وفي تلك الاثناء حطت كف على كتفي، التفت فإذا بجلنار تربت علي وتقول(لاعليك! إشرب كأسك)شعرت بالارتياح لوجودها، كانت ترتدي فستانها الابيض المزين بزهر الرمان. وبدا الموقف كما لو كنا في اجتماع يبث على الهواء

مباشرة، لذلك توجست خيفة من أن يشاهدني أبي، فتسللت من بينهم وما كدت أخرج حتى جلجلت خلفي ضحكة شامتة تؤيد كلام الرئيس بشأن المرأة، فصعدت السلم مستاءاً ولذت بالعلية أشاهد الرئيس الذي صار يوسف الألقوشي وقد كان ينوء بحمل فسيلة نخل ويرتقي جبلاً وعراً، كأنه كلف من قبل المجتمعين بزراعتها فوق، بيد أنه تعثر في آخر لحظة وسقطت الفسيلة من على ظهره وهوت تتقلب في وهدة عميقة، ترددت من أعماقها الضحكة المجلجلة الماجنة، وانقبض صدري لها قبل أن تمد جلنار يدها ثانية وتضعها على كتفي لتوقظني.

الفصل الثلاثون

الضيف المجهول

أبلغت جلنار بعد الغداء أن تستعد لقدوم ضيوف مهمين على العشاء، فردت بالسرور الذي يغمرها عادة كلما طلبت منها أمراً..

- حاضر سيدي، كم عددهم ؟
- إثنان فقط..(ثم أردفت) أتذكرين الكيس الورقي الذي جلبته من ألقوش وأمرتك أن تضعينه في السرداب.
- نعم، موجود في مكانه، ولكن مضت عليه سنة، الا يتلف؟
- لا، أصبح الان أفضل، ضعي زجاجة واحدة في الثلاجة لتكون باردة مع العشاء.
- حاضر سيدي.
- وليتك ياجلنار تكفين عن سيدي هذه فإنها توترني، ياسيدتي.
- حاضر سـ..

قالت ذلك وقد تورد وجهها خجلاً ثم استدارت لتذهب لكنني استوقفتها وقلت..

- جلنار! إلبسي أحسن ما عندك الليلة، إسمعي! ألبسي فستان زهر الرمان ذاك.

حدقت بي ملياً ولسان حيرتها يقول؛ ها أنت تذكره إذن، فلم يكن يشغلك عنه ماهو أهم كما زعمت، لمَ تعمدت تجاهلي إذن، لقد كنت لبسته لك واستقبلتك مشتاقة فخذلتني. وقطعت عليها حيرتها بقولي..

- أريدك أن تكوني الاجمل الليلة.

ردت وقد زادتها الملاحظة الاخيرة حيرة على حيرة..

- حاضر.
- إسمعي جلنار! ليس من المناسب وجود سعدي معنا بسبب وجود سيدة.
- إطمئن سيدي إنه يتعشى وينام مع الدجاج، أعني مع غروب الشمس.
- هكذا أفضل.

رمَّت أحلام يقظتها القديمة وذهبت ظافرة، تدندن لأول مرة. وسرعان ماشمرت عن ساعديها وانطلقت تطوف بالبيت كالنحلة.

حين صحوت من قيلولتي عصراً، ألفيتُ كل شيء جميلاً وجديداً كأني أراه لأول مرة، وغدت الحديقة جنة بعد أن أبلغت سعدي بشأن الضيوف فزين ممرها الطويل بصفين من أصص الازهار، وقص المرج وشغل النافورة التي تتوسطه وأطلق به الحمائم التي جلبها مؤخراً من سوق الغزل، وهو سوق عباسي قديم كان لتجارة الغزول لكنه صار الان لبيع الحيوانات الاليفة، ورشَّ أوراق الاشجار بالماء فبدت ندية

خضلة، ومع حلول الغروب، بدأت أزهار الشبوي الصغيرة تعطر الجو بأريجها. وسألني سعدي حين لاحظ أنني أتملى الحديقة..

- مارأيك سيدي؟
- أحسنت سعدي كل شيء تمام.
- هل تأمرني بأي شيء آخر، هل تريدني معك أثناء قدوم الضيوف.
- كلا، أشكرك، يمكنك أن ترتاح.

دخل سعدي الى بيته وخرجت جلنار بلفة ثيابها ودخلت الى الحمام لتستحم، واعتكفت في المكتب، تاركاً بابه مواراباً لأراها حين تخرج، وقد مكثت في الحمام طويلاً، وكنت أقرأ حيناً وأرنو صوب باب الحمام أحياناً، منتظراً إطلالتها حتى ظهرت أخيراً، يا الهي! كأنها خرجت من مغطس عسل تواً، كانت كلها تقطر شهداً، عسلية العينين والشفتين والخدين والشعر، أين كان كل هذا الجمال الساحر متوارياً، بدت مشعةً مثل ماسة صقلت بدقة وعناية، خرجت من المكتب وقطعت عليها الطريق فيما كانت تدس رأسها بالمنشفة قائلاً..

- نعيماً يا..

أوشكت أن أقول يا عمري كالعادة وقمعتها سريعاً، أطرقت بحياء وبدا أن ظهوري المفاجئ أربكها، إذ لم ترني الا وانا بالقرب منها لحظة أن أخرجت رأسها من المنشفة، وردت..

- الله ينعم عليك، سيدي.

- ألم نتفق على ترك الالقاب.

وأطرقت ثانية وهي ترد بصوت خفيض..

- نسيت.
- حسناً لا تنسي بعد والا خاطبتك سيدتي أيضاً. لاشك أنها ستشعر بالغيرة منك.
- من ؟
- الضيفة القادمة؟
- ومن أكون لتغار مني تلك السيدة؟
- جلنار.. زهر الرمان.

ولم تحر جواباً بعد فولت هاربة الى بيتها وقد خلفت وراءها رائحة الجسد المضمخ بالجمر وعطر الصابون.

الفصل الحادي والثلاثون

جنة

خرج سعدي من المطبخ يتلمظ وقد تناول عشاءه مبكراً كالعادة وسألني مجدداً إن كنت أحتاج اليه فشكرته، فقال

- حسناً إذن سيدي، تصبح على خير.
- وأنت من أهله.

كنت جالساً في الصالة أراقب جلنار وهي تروح وتجيء دون أن تعمل شيئاً فقد أتمت كل شيء ولم يبق غير قدوم الضيوف لكنهم لم يأتوا بعد، كانت قلقة مرتبكة..

- ألم يتأخروا ؟
- لا، عادي جداً.
- هل أضع الطعام على المائدة الان؟
- لا، ليس بعد، تعنين على مائدة الطعام؟
- أكيد.
- لا،لا، أعدي مائدة صغيرة غيرها ، هناك قرب النافذة البعيدة، لها إطلالة جميلة على الحديقة.
- لكنها سوف لن تسع الطعام الكثير الذي أعددته.

- لايهم.

هي تحكي بحرقة وانا أرد ببرود، ثم هزت كتفيها كأنها تقول أنا أيضاً لا يهمني أين يأكلون، أزاحت الستارة بسرعة ثم وضعت مائدة وثلاثة كراسي بجوار النافذة، ومرت بالقرب مني متجهة الى المطبخ لتنقل الطعام، فسألتها..

- لمَ ثلاثة كراسي؟
- لك ولضيفيك.
- وأنت؟
- أنا لا أجلس معكم سيدي، بل أكون واقفة بخدمتكم.
- كلا ، أفعلي ما آمرك به.
- حاضر سيدي..

قالت ذلك وجاءت بكرسي رابع. فقلت لها..

- ماذا فعلت ؟
- ألسنا أربعة؟
- لايهم، أعني كرسيان اثنان فقط كافيان وزيادة.

فضحكت وقالت..

- لابد أنك تمزح كيف ثلاثة لاتكفي واثنان يكفيان وزيادة؟
- كما أقول لك، هاتي الشمعدان الفضي من العلية واشعلي شموعه، وضعي زجاجة النبيذ وكأسين .
- حاضر .

تراقصت الشموع السبعة أمامي حتى ذاب نصفها من الرقص ولم يصل الضيوف بعد.

- أخشى أنهما لن يأتيا بعد، فلقد تأخر الوقت كثيراً. هل من سبيل للاتصال بهما؟

سألت جلنار وقد استولى عليها القلق والسأم.

- مالك ؟ مازال الليل بأوله، تعالي اجلسي هنا.

جلست أمامي تفرك يديها وتحدق بالشموع ثم قالت وكأنها بدأت تفهم الامر.

- من ضيوفك ياسيدي؟
- أنت وحدك كل ضيوفي.
- أنا ؟
- نعم. جلنار أنت وحدك، ماكان اسمك في الطفولة.
- جنة، ومازال سعدي يناديني به فيما بيننا فقط.
- حسناً ياجنتي، هل تقبلين بي زوجاً؟

حدقت بعيني برهة واغرورقت عيناها بالدمع قبل أن ترد..

- ماذا قلت سيدي؟
- كما سمعت سيدتي.
- أرجوك لم يعد لدي قلب للمزاح، أعد ماقلته ثانية لأفهم.
- هل.. تقبلين بي.. زوجاً.. لكِ ؟

حينئذٍ فاضت الدموع من عينيها غزيرة، وضعت وجهها بين كفيها وانحنت على المائدة وراحت تنشج. قربت مقعدي منها، رفعت رأسها بين يدي ومسحت دموعها.

- لمَ تبكين يا عمري؟
- مرة تقول لا تعتني بي حتى لو رأيتني أشتعل، ومرة تقول تقبليني زوجاً، أنت تعذبني منذ سنة يا سيدي، وتسأل لم أبكي؟ ماذا تريد مني بالضبط؟ أنت تقترب لحظة وتبتعد أياماً؟ لماذا بالله عليك يا سيدي؟
- سأحكي لك كل شيء فيما بعد والان ردي على سؤالي، هل تقبليني زوجاً لك؟
- ومن أكون لأقبل أو أرفض، أنا أسألك هل ترضى بي زوجة لك، أنت ابن الباشوات وأنا الفتاة الخادمة الفقيرة المقطوعة من شجرة؟
- تشرفينني؟
- أنا؟
- نعم أنت يا جنتي

قلت ذلك وسكبت كأسين فقالت مستنكرة..

- أنا لا أشرب.
- أعلم، ولكن هذا الكأس فقط لأجلي.
- لأجلك أنت أشرب السم.

- اسم الله عليكِ حبيبة قلبي.

رفعت كأسها وأفرغته في جوفها دون أن تتذوقه أو تشمه، سرحت ببصرها في المرج الاخضر وقد توارت حمائمه بين شجيرات الآس تغفو بهناء، ثم حدقت بعيني بعمق لأول مرة ، وسألت..

- تحبني؟
- منذ أول لحظة رأيتك فيها. وأنت؟
- أموت عليك. ومنذ أول لحظة شعرت معك بأني إنسانة، الامر الذي لم أجده عند أحد غيرك من قبل.
- إحكِ لي عن اتصالي بك من ألقوش.

اشرقت وجنتاها وزاد بريق عينيها وردت مبتسة.

- في تلك الليلة بتُّ أتقلب على جمر الغيرة الى الفجر.
- لست وحدك اكتويتِ بها، فمازالت تعذبني كلمات سعدي حين قال أن الدكتور كان هائجاً، قبل أن تتمكن جلنار من ترويضة، وتساءلت ماذا فعلت لترويضه؟ كيف نظرتِ اليه؟ وكيف نظر هو؟ وكيف أثرت به، الامر الذي عجز عنه سعدي؟ أنا أيضاً أعاني من الغيرة يا جنتي .

كادت تطير من الفرح لاشتعالي..

- يا إلهي! ألهذه الدرجة، ياعمري! فداك جلنار! (ثم ضحكت وأردفت) أتعلم إن كل ما فعلته هو أني نفخته قليلاً، قلت له أنت دكتور يا سيدي وشقيقي انسان بسيط، لامجال للمقارنة

بينكما، واذا كان قد أساء اليك، فأنا بوصفي أخته الكبرى، أعتذر اليك نيابة عنه. هذا كل ما في الامر، أما إذا كان هو قد تأثر بعيني فهذا شأنه، أما أنا فلا يملأ عيني وقلبي غيرك. أما وقد بدا لي أنك لا تقل عني غيرة فاعلم أني تلك الليلة لم أنم إلا بعد أن احتضنت وسادتك، وكان عزائي أنك راجع الي غداً، وحين صحوت فعلت كل ما يمكن أن يجعلك راضياً عني، تحممت، تعطرت، سرحت شعري، لبست هذا الفستان، عملت لك الكليجة، أعددت الغداء، كل شيء كان مستعداً لرضاك، ولكن ...

ثم أجهشت بالبكاء، ودون أن تسألني تناولت الزجاجة وسكبت لنفسها كأساً آخر وأفرغته في جوفها دفعة واحدة، ثم كفكفت دموعها وقد اشتعل بريق عينيها واحمرت وجنتاها، واكملت..

- لقد سحقتني حين قلت أن لديك ما يشغلك عن فستاني، عاملتني كحشرة.
- آسف ياجنتي! كانت لي أسبابي الخاصة التي سأرويها لك في الوقت المناسب، لكنني سأعوضك عن كل تلك العذابات، أعدكِ ! ولسوف ترين.

ارتجفت يدها بين يدي وسارعت الى سحبها وهي تحدق بنافذة الكوخ المضيئة بنور باهت.

- كأني رأيت ظلاً يتحرك خلف الزجاج.

- خائفة؟
- نعم. يمكنه أن يرانا من هناك بوضوح.
- ليكن، سأطلبك منه على الفور.
- حقاً؟
- أكيد، لا تخافي بعد أبداً .

اتسعت عيناها وتألقتا فرحاً ونظرت لكأسها الخالية وابتسمت

- هل تريدني أن أشرب بعد.
- لا، أنا لم أعد أريد شيئاً غيرك، أما أنت فمنذ الان وحدك تقررين ما تريدين.
- ياعمري يا يوسف!
- أنا؟ يا إلهي هذا مالم أسمعه في حياتي.
- ستسمعه مني كل يوم ياعمري.

أخذت وجهها بين كفيَّ وهممت أن أقبل شفتيها بيد أنها أدارت وجهها سريعاً فلثمت خدها، قالت..

- هكذا أفضل الان. تصبح على خير.
- ولكن..

وضعت سبابتها على شفتي وأسكتتني، ثم خرجت تتبعها عيناي في الممر المؤدي الى الكوخ، وعند بابه التفتت في آخر لحظة، كما تمنيت أن تفعل، وأرسلت لي قبلة، ثم أغلقت الباب .

الفصل الثاني والثلاثون

بين لذة الوهم والم الحقيقة

لم أنم ليلتها، ولا أحسب أنها استطاعت أن تنام أيضاً، وتذكرت أننا لم نأكل شيئاً، دخلت المطبخ وأكلت لقمة، الفرح هو الذي يقتل الشهية عندي أما الحزن فيفتحها على مصراعيها، نقلت طعام الوليمة الوهمية الى الثلاجة لأنه لن يؤكل غدا اذا ترك في هذا الحر. عدت الى حيث كنا جالسين، أخذت كأسها وتذوقت الثمالة التي لثمت شفتيها واستقرت فيه سكرى، ثم شربت به ما بقي من الزجاجة المقدسة، وأنا أحدق بشمعدان أمي الذي ما كان يخرج الا في الاعياد والمناسبات الغالية على قلبها، وقد انطفأت فيه شموعها السبعة، وتبددت الى الابد، فحتى لو قدر لها أن تُسبك في قالب جديد لن تكون شموعها أبداً بل شموعاً أخرى لها نار أخرى ونور آخر وأعياد أخرى، كما أن الانسان إذا قُبِّضَ له أن يبعث فلن يبعث ذاته الاولى أبداً، شعرت أن انطفاءها مثل انطفاء آخر جذوة من أمي، هل أستطيع أن أكرهها؟ أبداً! هل كانت مجرمة أم ضحية؟ هل استحقت ما حدث لها، هل كانت شريرة؟ من ذا الذي يستطيع أن يجيب على تلك الاسئلة بدقة؟ وتذكرت قول المسيح(من كان منكم بلا خطيَّة فليرمها أولاً بحجر)

أمضيت ما بقي من الليل أتسكع في الحديقة حيناً وأستريح على الارجوحة حيناً آخر، متأملاً فيما وصلت اليه حياتي أخيراً، ولأول مرة انتبهت لعدم وجود أشباح حتى في الزوايا المظلمة التي كنت أجدهم قابعين فيها من قبل، ولا أدري لم خطر ببالي أن أجرب العلية التي طالما كانت وكرهم المفضل، جلست الى نافذتها المطلة على الحديقة حيث كنت أجلس في ساعات مخاض عسير بانتظار ولادة ذكرى جديدة أستعين بها على تفكيك هذه (الطفولة الملتبسة) فلا أظفر بغير الاشباح والهلاوس، فتحت النافذة فطرد نسيم النهر المنعش حرارة الغرفة الخانقة. وتساءلت من من الناس بلا ماضٍ ملتبس بنحو أو آخر، له أو لأسرته، الفرق بيني وبينهم أنني عرفت، وغيري لم يعرف بعد، وربما لن يعرف ابدا، فالماضي يقبع في قاع مظلم عميق لا يصل اليه الوعي الا نادراً، أوقل أنه يصل الى ما يريد أن يصل اليه منه فقط، أما تلك الزوايا النتنة، فإنه يتغافل عنها ويطمسها بعناية، ونادراً ما تجد من يسعى بعزم واصرار عميق على الكشف عنها، ولعله حينئذٍ سيشفى لكنه سيتعذب، إنها معادلة صعبة ومعقدة، كل كفة منها أمَرُّ من الاخرى، ويبدو لي أن أغلب الناس يفضلون لذة الوهم على ألم الحقيقة، لذلك يندر أن تجد أحداً بلا علل نفسية، فهي ثمن اللذة، إذ لا شيء بلا ثمن. أما وقد اخترت مواجهة الماضي، وعكفت على مطاردته من ركن لآخر، دون كلل أو ملل، فعليَّ أن أدفع ثمن شفائي الماً، ولا سبيل أمامي سوى التعايش معه، فلست أنا من صنع ذلك الماضي بل أنا

ضحيته، عند تلك النقطة شعرت بالارتياح وتثاءبت ثم هبطت السلم واستسلمت لنوم عميق.

الفصل الثالث والثلاثون

مكاشفات

شقشق الفجر وزقزقت العصافير ومازلنا نتهامس، أمضينا الليل كله نحكي، نحن عاشقان غريبان، اهتدينا لبعضنا بقلوبنا، فلم نلتقِ كحبيبين غير مرة واحدة، ولا نعرف عن بعضنا شيئاً، وها نحن، بالمقلوب، نتعارف الان، ليلةَ زفافنا . أصرت جلنار أن تحكي لي كل شيء، قلت..

- لا يهمني الماضي يا حبيبتي.
- أنا يهمني أن أحكي لك إذ أنني لم أجد في حياتي كلها من أبثه شكواي وأبوح له بأسراري، فلدي ما لا يمكن أن أحكيه حتى لشقيقي .
- حسناً، أنا لا أملُّ من حديثك ما دمتِ راغبة به.
- كان أبي كهلاً نحيلاً شاحباً، مثل ميتٍ يمشي على قدمين، لم أره يوماً بلا زنبيل الخوص الكبير، يجثم على ظهره كأنه حدبتة التي ولد بها، تعصب جبهتَه عروتاه المضفورتان من القنب الخشن، فتحفران بها خط القدر المعتم وقد تغضن الجلد تحته، فكان ممن سيماهم في وجوههم من أثر العذاب، سيماء عجز

حتى الموت بكل سطوته الصفراء عن مسحها. في سنوات طفولتي الاولى كان يضعني فيه أحياناً، ويطوف بي فأخرج رأسي من بين كتفيه مثل قطة، أتشمم رائحة السوق المختلطة من روائح السمك واللحم والطرشي والفواكه والخضار والريحان المرشوش، وعفونة الماء الاسن في المجرى الذي يتوسطه ويقسم زحامه الى ضفتين، ثم يعود بي الى البيت، يتنطط ويسعل عند الباب مرارا وتكرارا ليضحكني ريثما يفتح له، يتناول غداءه لقمتين لي ولقمة له، يقبلني ثم يعود الى شقائه مسرعاً. لكم كان أبي حنوناً يا يوسف، كلما التقيت رجلاً حلمت أن يكون مثله ولكن عبثاً. كان يعشق أمي بجنون، كانت هي شقراء فاتنة أطول منه وأوفر صحة، وكنت أراهما بعين الطفولة يمرحان ويضحكان ردحاً من الليل قبل أن يغفوان، كانا مثلنا نحن الاطفال في كل شيء. حتى مرضت مرضاً شديداً ألقاها في فراش الموت، وزارنا الكثير من الملالي وكتبوا الرقى والتعاويذ وحرقوا البخور ولكن لا جدوى، فقد ظلت تذوي سريعاً حتى ماتت، وكنت في التاسعة وسعدي في الخامسة، ولم يلبث أبي أن تزوج بأرملة عاقر، كان يأمل أن تعينه على تربيتنا وتتخذنا طفلين لها، بيد أنها خذلته وسامتنا سوء العذاب، وكنت في الرابعة عشرة حين باعتني لمشعوذ كهل عليل في الستين من العمر، طلقني في الصباح لأنه لم يرَ دمَ بكارتي الذي كان

الحشد ينتظره عند الباب، لم أكن أفهم شيئاً مما قالوا، بيد أنني أمضيت معه أسوأ كوابيس حياتي، فبعد أن عراني وعبث بي حتى مل، انقلب عني جانباً وهو يلهث كالكلب ويطلق صدره صفيراً متقطعاً، وما أن التقط أنفاسه حتى راح يحقق معي بشتى صنوف التعذيب، ضربني وشتمني وهددني، وكوى مناطق من جسدي بسيجارته، لأعترف له بمن كان عشيقي، أقسمت له مراراً وتكراراً أن أحداً لم يلمس جسدي من قبل، دون جدوى وها أنا أكرر القسم لك بالله العظيم، لم الامس جسد أحد قبل تلك الليلة ولا بعدها، هل تصدقني يوسف؟

- نعم أصدقك، هذا انسان جاهل فكثير من الفتيات لا يظهر دم بكارتهن، لأسباب كثيرة، يتعلق بعضها بالرجل، وبعضها بالمرأة، وخاصة من كن في مثل سنك آنذاك.
- حقاً ؟ أنت تصدقني؟ لا يهمني شيء ولا احد بعد إذن، ولسوف أمحو هذا الوجوم الذي رسمته على وجهك ، أضحك! (وشجعتها ابتسامتي فأردفت بفرح) أليس شر البلية ما يضحك؟ فاضحك وإليك شر البلية، طال انتظار الحشد في الباب قبل أن يظهر الملّا(*)، ويلوح لهم بالمنديل الابيض

(*)رجل دين شعبي لم يدرس في المؤسسات الدينية الرسمية .

ويلقى فيهم خطبة في الدين والاخلاق وأشياء أخرى لا أفهمها، بيد أن أهم ما فيها أنه شتم أبي وأمي ونبش سابع ظهر من أسلافي ثم شمل الكرد والهنود جميعاً بسبابه، والمصيبة أن أغلب الواقفين من الكرد الفيليين، بيد أن للمُلّا حصانة دينية، تمكنه من شتم من يشاء دون حساب أوعتاب بل يعتبر البعض شتيمته نوع من العشم الذي يعده المشتوم تقرباً ، وختم الملّا الورع كلامه بوصفي بكلمات لا أجرؤ على التلفظ بها، ثم وجه كلامه الي وكنت مختبئة في الغرفة ارتجف رعباً، قال أسمعي أيتها العاهرة أنت طالق طالق طالق، وكأنه قال كلمة السر التي كان ينتظرها الحشد فلم يبق أحد منهم الا وهتف العاهرة الـ.. ومنذ ذلك الحين وهم يتقربون الى الله بالهمز واللمز كلما رأو أحداً منا، لمَ هم بكل هذه القسوة؟ لمَ يستمتعون بها؟ حقا كما قيل دائما اذا سقط الجمل كثرت سكاكينه، أتعلم أن كل من اساءوا لنا كنا نعدهم جيران واصدقاء ومحبين، نحن لم يسبق أن اسأنا لهم ولو بحرف، مالِلناس؟ مالهم؟ هل تعرف السبب؟ لقد قطعتني ألسنتهم القذرة إرباً، لطخوا سمعتي بالوحل وأنا أبكي وأقسم أني بريئة، ولكن من ذا الذي يصدقني ويكذب مُلّا رجب الذي يعتبره أهل المحلة مقدساً، وما لبث أبي (وهنا تهدج صوتها وغابت منه مسحة المرح وتملكها الحزن مجدداً) ما لبث أن مات، هم قتلوه، يتندرون

عليه ويتنمرون، ويسمعونه كلاماً بذيئاً، وكان هو حبيب قلبي، مسالماً، لا يرد على أحد منهم، كان لاحول ولا قوة، ولكن أتعلم هو أيضاً قال أنا أعلم يا بنتي أنك طاهرة. أما الوحيد الذي ظل الى جانبنا قبل وبعد وفاة أبي فهو أبو عصام، كان يمر بنا من حين لآخر، ولكن ما عساه يفعل أكثر مما فعل وهو الاخر ينوء بحمل عائلتين واحدة في بغداد والاخرى في القوش.

وانخرطت جلنار في بكاء مر، وابكتني معها فاحتضنتها ومسحت دموعها وقبلت جبينها وتوسلت اليها أن تكف عن سرد المزيد، لكنها أصرت أن تواصل قائلة

- لمن أشكو الهموم التي قصمت ظهري سواك يا عمري، أريدك أن تحتمل شكواي وأعدك أن أمحوها الى الابد، لنبدأ معاً صفحة بيضاء لا يشوبها حزن . حين تركنا الحي وعملنا لدى بعض معارف أبي عصام بات الامر أقل شراً، ولكن الى حين، إذ سرعان ما غدوت اتعرض للتحرش من زبائن المشتل كل يوم، حتى أن بعضهم كان يقتحم علي حجرتنا حين يكون سعدي مشغولا بتحضير طلبه، وخشيت أن يقتل سعدي أحدهم ويمضي حياته بالسجن، فهو شديد الانفعال حين يتعلق الأمر بي، لأنه أدرك متأخراً ماكنت قد تعرضت له في طفولته، حين لم يكن بوسعه آنذاك ان يفعل شيئاً، فالحت

على أبي عصام ان ينجدنا بعمل مستور، وبعد فترة قصيرة عرض علينا العمل لديك(ويبدو أنها شعرت بالقاء كل ما كانت تنوء به من حزن، فأردفت بحبور) ورأيتك فاحببتك، لكنني قلت لنفسي يا بنت هذا ابن باشوات محال أن ينظر اليك، ثم أنه(وهنا ضحكت) لا يفكر بالزواج كما يبدو. يكفي فقد لغوت كثيراً، والان جاء دورك..

دوري؟ تساءلت في سري، ماذا أقول، وممَّ أبدأ، وهل سترضى بي بعد أن تعرف حقيقة ابن الباشوات الزائف، أو على الاقل هل ستظل تحترمني كما تفعل الان، ويبدو أن شرودي طال عليها فقالت..

- ها ؟ أين وصلت ؟
- معك ، ولكنني أفكر من أين أبدأ.
- ألهذه الدرجة هن كثيرات؟
- من؟
- حبيباتك القديمات.
- أنا؟ هاهاها.. لا، لا، عنيت من أين أبدأ حكايتي، فإنني أخشى أن أخذلك ولا أكون عند حسن ظنك، أما عن الحبيبات فاطمئني ياحبيبتي، أنا ليس لي قريبات، وفي الكلية، كنت خجولاً منعزلاً بطبيعتي، بحيث أن الاكثرية كانوا يعتقدون أنني متعجرف ولا يقترب مني أحد، الوحيدة التي حاولت التقرب مني صددتها بطريقة فجة دون قصد، وحين

أردت الاعتذار لم أفلح بل زدت الطين بلة، ويبدو أنها روت جانباً مما حصل لبعض زميلاتها فتجنبني، بحيث أمضيت سنوات الدراسة بلا أصدقاء ناهيك عن صديقات. فأنت أول حب في حياتي.

- حسنا! فأنا لا أريد من ماضيك غير هذا والا فأنت غني عن التعريف..

أردت أن أعلق بيد أنها أغلقت فمي بأصبعها، فقبلته ثم احتضنتها وطبعت قبلة طويلة على شفتيها، تدحرجنا، تعرينا، ولعقت بالنهم الموروث، جسدها الشهي من أقصاه الى أقصاه، وهي تتثنى وتمور اشتهاءاً مثل قطة، وترعى أدغال جسدي الكثيفة، حتى حدثت المفاجأة التي لم تخطر ببالنا، المفاجأة التي جعلت جلنار على كل لسان مرة أخرى..

الفصل الرابع والثلاثون

البراءة

اشتعلت روحك مُلّا رجب..! الله لا يرحمك مُلّا رجب..! بهاتين الجملتين طاف سعدي على الجيران والمعارف القدماء في الصدرية والعوينة ومحلة سراج الدين، ولم يترك باباً في عكد(*) الكراد حيث كانوا يسكنون إلا وطرقه، وأثار صخباً لا يقل اشتعالا عمّا حدث قبل ستة عشر عاماً، حين اتهموا شقيقته بالفاحشة وهي ماتزال طفلة بريئة بسبب رجل غبي لم يحسن التعامل مع جسدها، وراحت النسوة اللائي تزعمن نشر التهمة آنذاك، يسعين الى طلب الغفران، فقد باتت أقدامهن على حافة القبر الان، ويا روح ما بعدك روح. تكلمن في براءتها أضعاف ما فعلنه في اتهامها آنذاك، دون وجلٍ فمُلّا رجب صارت عظامه الان تراباً، ولا حصانة للتراب.وعلم الجميع أنها نقلت الى المستشفى صباح عرسها، إثر نزيف حاد لبكارتها، عجزت عن لجم صرخته المناديل. وقالت إحدى العجائز المعروفات بتعليقاتهن اللاذعة الساخرة..

(*) زقاق

- لا تزعل وليدي سعّودي! هي أختك تعلمت أن يكون عرسها مثل عرس القطط، كله ضجيج، في المرة الثانية كما في الاولى على حد سواء.

وضحكت النسوة المتحلقات حوله في الزقاق من أعماق قلوبهن،فغسلنها من أدران الماضي، ثم توجهن الى المشفى وسرعان ما تزاحم أمام باب حجرتها حشد من طالبات الغفران، تردد كل منهن أمامها(ابرئي ذمتي يا بنتي لم يبق من العمر الا القليل) وهي توزع عليهن صكوك الغفران بسخاء، بل لقد فاجأت أحداهن بقولها..

- رب ضارة نافعة يا أم حسين، لقد فضلتم على رأسي من فوق بما فعلتم، فقد كنتم سبب خروجنا من الصدرية الامر الذي أفضى في النهاية الى زواجي من ابن الباشوات، عوضني الله خيراً، وإلا لكنت ما زلت الان هناك أبيع الاكياس ومازال سعدي حمالاً في السوق .

وتقدم مني رجل كهل يلبس صاية ويعتمر جراوية(*) قائلاً ؛ – حضرتك سيد يوسف؟

(*)الصاية، جبة بلا أكمام، لها فتحتان جانبيتان، يلبس تحتها قميص وسروال أبيضين، وفوقها جاكيت، وتشد بحزام من نفس قماشها. والجرّاوية، كوفية مرقطة تلف بهيأة عمامة صغيرة.

- نعم، تفضل؟

- والله يا مولانا لا أدري ماذا أقول، أنا أيضاً أحد الجيران القدماء وكنت آنذاك شاباً أتمتع بصحة جيدة، لكنني وأستغفر الله مما فعلت، كنت متطرفاً بتبعيتي للملا يغفر الله له ، متحمساً لكل ما يقول، وقد جرت وافتريت على زوجتك الكريمة كثيراً، لم تكن تسلم من لساني كلما خرجت من الباب، ولا أدري هل يمكن أن تسمح لي برؤيتها لأُبرِئَ ذمتي أمام الله قبل أن أموت.

- عذرا يا أخي، حتى أنا لا أستطيع أن أدخل كما ترى، ولكن أؤكد لك أنها سامحتكم جميعاً، اطمئن واذا شئت فلوقت آخر إن شاء الله.

فانفتل مكسور الخاطر وعاد من حيث أتى وسرعان ما توارى في الممر الطويل. وشيئاً فشيئاً انفض جميع الزائرين، وعادت الطبيبة العجوز لتقول أن لا ضرورة لوجودها هنا فهي الان بخير. وانتهزت الفرصة وسألتها ونحن نلم أغراضنا ونغادر..

- هل يمكن أن أعرف السبب يا دكتورة؟
- عادي جداً، يحصل لكثير من الابكار الكبيرات بالسن نسبياً، وخاصة مع زوج مثلك.

والقت إليَّ ، مع الملاحظة الاخيرة، ابتسامة ذات مغزى، ثم ذهبت سريعاً. ففهمت أنها تلمح لجسدي الذي ورث فحولة طاغية،

فابتسمت برضاً وأخذت بيد جلنار وخرجنا وقد التفتت الي وعلقت وهي تضحك ..

- ماذا فعلت بي..؟ لقد فضحتني يا حبيبي ، الله يعطيك العافية .

فضحكنا ونحن نغادر المشفى ونستقل سيارتنا عائدين الى البيت، وهمست حتى لا يسمعها سعدي الجالس خلفنا.

- لقد غمرنا الشرشف الابيض بزهر الرمان...

الفصل الخامس والثلاثون

المجنون

كانت الايام التالية أسعد أيام العمر، حب ومرح وسمر على دجلة كل مساء..

- لمَ لا تترك هذه العكاز يا حبيبي؟ فأنت تبدو بها أكبر من سنك بعشرين عاماً.
- حاضر هذه آخر مرة.(وتذكرت لماذا ومتى بدأت أستعملها) كان ذلك قبل بضعة أعوام، في وقت متأخر من الليل، اشتهيت أن أتعشى في مطعم كبة الكبة في الباب الشرقي وفي طريق العودة، شاهدت مجموعة من الشباب يقفزون على السلالم الكهربائية في نفق التحرير، عكس اتجاه حركتها، وأردت أن أثبت لنفسي أنني قادر على فعل ذلك، ومن أول سلمتين سقطت على ركبتي فوق الحافة الحديدية الحادة للسلمة، وانجرفت الى أسفل، ومنذ ذلك الحين وأنا أتوكأ عليها، وقبل أن تنتفي الحاجة لها كنت قد أعتدت عليها،

وأدمنت وجودها في يدي كالمسبحة عند بعض الناس، فباتت جزءً مني لا أخرج بدونها.

ومع آخر كلمات حكايتي، مدت جلنار يدها واستلتها من يدي بهدوء ثم وقفت وطوحت بها في الهواء والقتها بعيداً وصاحت..

- هكذا أحسن..
- ماذا فعلت أيتها المجنونة..؟

أسرعت صوب مكان وقوعها بين شجيرات متشابكة حيث وجدتها عالقة بالأغصان، فوق رأسي عاشقين، فالتقطتها وانسحبت.. وكانت جلنار ماتزال جالسة على المصطبة تنظر الي وتبتسم، ثم علقت..

- يبدو أنك لن تتخلص منها.
- لا لن استعملها بعد أبداً، ولكن أمرها لن ينتهي، فهي أيضاً جزء من الماضي الذي يجب أن نتصالح معه بدلاً من أن نتوهم أننا رميناه بعيداً، وندس رؤوسنا بالتراب.
- لم أفهم كلمة واحدة مما قلت.
- طيب ستفهمين كل شيء ياحبيبتي، أولاً هذه العكاز غالية الثمن فهي من الأبنوس وقبضتها من الكهرمان وما بينهما طوق من الذهب الخالص.
- يا إلهي حسبتها مجرد عصا لا تساوي شيئاً..

قالت ذلك وهي تتفحصها وتقلبها بين يديها بعناية فأردفت..

- بل انها تساوي اليوم الكثير، والأهم من قيمتها المادية أنها هدية أمي لأبي في عيد زواجهما الاول، أنظري ها هو أسم الباشا والتاريخ منقوشان بالذهب عام١٩٢٨أي قبل واحد وخمسين عاماً، فهي أكبر مني بسنة.
- آسفة يا حبيبي أعذر جهلي.
- لا تهتمي ! بسيطة. ولكن لم ننتهِ بعد، فإنها كادت أن تقاطع عاشقين هناك بين الشجيرات حيث علقت، فوق رأسيهما.
- حقاً(وضحكت ثم أردفت بجد)كل هذا وتقول بسيطة؟ لا، لقد بات لزاماً علي أن أعتذر لهما.
- العاشقين ؟
- لا،لا، ماذا تقول؟ أعني والديك رحمهما الله، فلقد قللت من احترامهما بفعلتي الغبية، شلت يدي حين فعلت.
- لا تقولي ذلك يا عمري فأنت لا تقصدين الاساءة.. يجب أن لا نجلد أنفسنا على كل هفوة والا ملأتنا العقد. حين أقول لك بسيطة فهي فعلاً بسيطة. اتفقنا؟
- حسناً ولكن لا يمكن أن يمر الامر هكذا؟ نذر علي أن أزور قبريهما وأقرأ الفاتحة وأطلب المغفرة.
- هاهاها.. لك شؤون عجيبة، ولايهمك! أعدك بذلك وإن كنت لم أزر أي قبر من قبل ولكن لعينيك أفعل.
- ما رأيك بيوم غدٍ الجمعة ؟

- كما تشائين..

وفي صباح اليوم التالي لم تكذب جلنار خبراً، فقد بكرت تستعد لزيارة المقبرة، ومن سريري شممت رائحة الدهن الحر، وعجبت إذ أنني لم أشعر بالغثيان كما كنت دائماً، لحقتها الى المطبخ لأقف على ما تفعل، فوجدتها تعد حلوى التمر بالجوز واللوز والدهن الحر، لتوزعها على الفقراء والمتسولين في المقبرة، بثواب روحيهما .

سألت حارس مقبرة الكاظمية عن القبرين فأشار الى شجرة رمان يجلس تحتها مجنون ممزق الثياب، فقلت مستاءاً..

- ألا يوجد مستشفى للامراض العقلية؟ ألا ينبغي أن يودع هؤلاء المعذبون فيه أكرم لهم .
- عبثاً فعلنا يا سيد، كلما أخذوه الى الشماعية هرب بعد مدة، وعاد الى نفس المكان لا يبارحه ليل نهار.

وحين اقتربنا منه، رأيت عبر شقوق ثوبه المهلهل، الكتفين المجللين بالشعر الكث الاشيب المغبر، وحين أخرجت جلنار بعض الحلوى ووضعتها على القبر، انتفض لرائحتها أول الأمر، ثم هدأ ومد يده فأخذ بعضها، وأسند ظهره على شاهدة القبر، حيث طُمس اسم خديجة برسم يمامة، وراح يأكل على مهل، وتفيض عيناه بالدموع....

* * *

السيرة الذاتية

عبد الحكيم الوائلي

• ولد عام١٩٥٧ في الناصرية لأسرة نجفية محافظة أنجبت العديد من الشعراء والخطباء ورجال الدين المعروفين، لكنه جنح الى اليسار بخلاف أسلافه.

• انتقل بعمر عشر سنوات مع اسرته الى مدينة الكوت حيث اكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والاعدادية.

• انتقل مع عائلته للعيش في بغداد منتصف السبعينيات حيث درس في كلية الادارة والاقتصاد بالجامعة المستنصرية ونال شهادة البكلوريوس بعلم الاقتصاد عام١٩٧٩

• بدأ الكتابة في وقت مبكر من حياته بيد أنه فقد كل نتاجه في السبعينيات أثر الحملة القمعية التي شنها النظام الدكتاتوري آنذاك. واضطر لكثرة الترحال داخل العراق أول الآمر، ثم خارجه ولم يتمكن من العودة الا عام٢٠٠٥ وفي نفس العام نال عضوية الاتحاد العام للادباء والكتاب.

• تنقل خلال حياته بين مهن وأعمال كثيرة لايشبه بعضها بعضاً بدأها عاملاً في ميناء المعقل بالبصرة، ثم صاقلاً للذهب في بغداد، وحداداً في الكوت، وسائق تكسي في الديوانية، وتاجر أنتيكات في كربلاء، وموظفاً حكومياً في الحلة، وعامل بناء في الاردن، ومحاسباً ومدرساً في

اليمن. لكن الكتابة وتجارة الاحجار الكريمة كانا ومازالا العملين اللذين لم ينقطع عنهما يوما. ويعمل حالياً مشرفاً ثقافياً وفنياً في قطاع الشباب والرياضة في محافظة النجف.

- صدرت له حتى الان:-

١- موسوعة الاحجار الكريمة- عمان ٢٠٠٠

٢- موسوعة قبائل العرب-٦مجلدات- عمان ٢٠٠١

٣- شاعرات العرب من العصر الجاهلي الى نهاية القرن العشرين- مجلدين- عمان ٢٠٠١

٤- شعراء الاندلس- عمان ٢٠٠١

٥- سفر سيزيف-شعر-دمشق ٢٠١١

٦- دموع ليليا-شعر-دمشق ٢٠١٧

٧- سكاكر القبلات- قصص قصيرة- دمشق ٢٠١٩

٨- قيثارة أنهار-شعر- بغداد ٢٠٢٠

٩- حب في سكرة موت- مسرحية تحت الطبع في دار الشؤون الثقافية العامة.

للإتصال:

جوال (07726020420)

بريد الكتروني: ah.alwaili@yahoo.com

فهرس

الفصل الاول (النادل) 9
الفصل الثاني (أشباح الطريق) 14
الفصل الثالث (السر) 20
الفصل الرابع (طفولة ملتبسة) 24
الفصل الخامس (الوهم) 27
الفصل السادس (خلف باب ميت) 30
الفصل السابع (عقدة نفسية) 33
الفصل الثامن (حروف غامضة) 37
الفصل التاسع (الشقيقان) 44
الفصل العاشر (جلنار) 51
الفصل الحادي عشر (تلصص) 57
الفصل الثاني عشر (حبة ومقسومة) 59
الفصل الثالث عشر (مباهج الحمى) 62
الفصل الرابع عشر (توبة) 69
الفصل الخامس عشر (الطريق الى ألقوش) 71
الفصل السادس عشر (ألقوش) 77
الفصل السابع عشر (زهر الرمان) 93
الفصل الثامن عشر (اليهودية العاشقة) 107
الفصل التاسع عشر (من يميما الى خديجة) 112
الفصل العشرون (الجحيم) 117
الفصل الحادي والعشرون (على حافة الموت) 121
الفصل الثاني والعشرون (الحضيض) 124
الفصل الثالث والعشرون (سقوط الجدار) 127

الفصل الرابع والعشرون (اللعنة) 129
الفصل الخامس والعشرون (اغتراب) 132
الفصل السادس والعشرون (تداعيات) 136
الفصل السابع والعشرون (إلى غير رجعة) 140
الفصل الثامن والعشرون (انتحار واختفاء) 143
الفصل التاسع والعشرون (يوم مشؤوم) 146
الفصل الثلاثون (ضيف مجهول) 149
الفصل الحادي والثلاثون (جنة) 153
الفصل الثاني والثلاثون (بين لذة الوهم وألم الحقيقة) 160
الفصل الثالث والثلاثون (مكاشفات) 163
الفصل الرابع والثلاثون (البراءة) 170
الفصل الخامس والثلاثون (المجنون) 174
السيرة الذاتية 179